485

HARLEQUIN

روايات أحلام

قلب يحتضن الجراح

كارا كولتر

www.elromancia.com
مرمورية

قلب يحتضن الجراح

تتولى كريستن فوريسون إدارة جمعية بابا نويل السرية. و تجد سعادة كبيرة في زرع الفرح في قلوب الآخرين. ومع أنها تخاف عذاب الحب. إلا أن أمنيتها السرية هي أن تلتقي رجلاً مميزاً يشاركها بهجة العيد.

عندما تطوع مايكل برويستر لتغليف هدايا العيد للأولاد. كان يعي أنها المرة الأولى التي يشارك فيها في عمل خيري.

لكن. في ظل الوحدة الرهيبة التي يعاني منها بعد أن غيب الموت أفراد عائلته. حملته الأقدار إلى مكتب كريستن.

أثناء عملهما جنباً إلى جنب. بدأت براعم الإعجاب تتفتح بينهما. فهل سيحررهما الحب من العذاب أم سيكون بداية لعذاب آخر؟

لبنان:	3000 ل.ل	البحرين:	1 دينار
سوريا:	100 ل.س.	السعودية:	10 ريال
الأردن:	1.5 دينار	مصر:	8 جنيه
الكويت:	750 فلس	المغرب:	15 درهم
الإمارات:	10 دراهم	تونس:	2.50 دينار
قطر:	10 ريال	عمان:	1 ريال

ISBN 978-9953-15-652-3

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Books S.A

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Books S.A

العلامة التجارية Harlequin وشعار Joey هما ملك شركة Harlequin Books S.A
وهما مستعملان هنا بترخيص منها

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
Their christmas wish come true
First Puplished in Great Britain 2005
Harlequin Mills & Boon Limited
©Cara colter 2007
Translation © Dar El-Farasha - 2010
ISBN 978 - 9953 - 15 -

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950 - 453115 -1-0961 - بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومنسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيّقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.elromancia.com

كارا كولتر

تعيش كارا كولتر وبطل حياتها الحقيقي، «روب»، في كولومبيا البريطانية. ويتشارك المنزل معها هرّهما «هانتر».

تمتلك كارا وزوجها سبعة أحصنة، من بينها مهران: «واينر» و«شنيتزل».

«زوجي روب متعهد بناء ويكره المنازل القديمة. كل ما توحي به بالنسبة إليه هو مجرد جدران غير مرتبة تحتاج إلى الترميم وذات مرة سأل مالك أحد المنازل التاريخية «روب» عما يظن أن منزله بحاجة اليه، فنظر إليه روب في عينيه وقال: «عود ثقاب». أما انا فرومنسية جداً وأعشق المنازل القديمة. أعتقد بأنها تاريخنا وبأن جدرانها محملة بالأغنيات والروايات».

١ - بركة من جليد

أربعون يوماً قبل حلول عيد الميلاد. . . .

بدا رنين جرس الباب أشبه بدوي مدفع حطت قنابله داخل رأسه وانفجرت فيه.

تأوه مايكل برويستر وتقلب على فراشه، ثم فتح إحدى عينيه بصعوبة وحدق في الساعة بجانب سريره.

إنها الساعة السادسة. أتراها السادسة صباحاً أم مساءً؟ إنها السادسة صباحاً. من تراه يقرع بابه في هذه الساعة المبكرة؟ أخذ وسادة مرمية جانباً ووضعها فوق رأسه، ولكن جرس الباب عاد يرن إلى ما لا نهاية. تلهس طريقه إلى طرف السرير وهو يترنح متأففاً، ثم أخذ سروال جينز مرمياً على الأرض وارتداه على عجل.

اجتاز الرواق متعثراً، حافي القدمين، عاري الصدر وفتح باب المنزل الأمامي بعنف. لفح نسيم تشرين الثاني وجهه معيداً إلى ذهنه الصفاء فكبح جماح انفعاله على مضض.

كان جاره العجوز السيد ثيودور الذي أحنت السنين ظهره واقفاً عند عتبة الباب. بدت إمارات البهجة على وجهه مع أن الوقت لا يزال مبكراً والسماء خلفه متشحة بلون رمادي داكن.

– جئت أبحث عنك مع طلوع الفجر.

كان مايكل يعاني من صداع حاد في الرأس وجفاف في الفم فشعر برغبة جامحة في تعنيف هذا الرجل العجوز وإقفال الباب في وجهه. ولكن كيف يسعه أن يفعل هذا؟

عاد مايكل مؤخراً للعيش في المنزل الذي ترعرع فيه، وكان السيد

www.elromancia.com

ثيودور يشكل جزءاً من الذكريات العزيزة على قلبه والتي حملته على العودة إلى دياره، إلى هذا المنزل الذي ما زال عابقاً برائحة غليون والده. لم ينسَ مايكل يوم أغار وشقيقه براين على حديقة السيد ثيودور وقطفا الورود التي زرعها بعناية فائقة ليقدماها لوالدتهما. كما لم ينسَ يوم كسرا أغصان شجرة التفاح البري في بستانه بينما كانا يتسلقانها.

على الرغم من هذه الذكريات، أو ربما بسببها، شعر مايكل بشيء من الحذر عندما اقترح عليه السيد تيودور أن يساعده في إصلاح منزله فوضع مايكل المالي يسمح له بالتخلي كلياً عن العمل اليدوي على الرغم من أنه نجار محترف.

وإذا ما وافق على طلبه ألن يجعل نفسه عرضة للوعظ المستمر؟ إذ لطالما كان السيد ثيودور عضواً في الكورس في كنيسته، ويجد سهولة فائقة في التحدث عن الدالي لاما قرب السياج الخلفي. وغالباً ما تراه يحمل في يده كتاباً في الفلسفة أو في الشعر.

ولكن في اللحظات الأكثر صدقاً، تساءل مايكل ما إذا كان من الممكن أن يجد لدى جاره العجوز والواسع الاطلاع جواباً على هذا الافلاس الروحي الذي يعاني منه، إذا ما وافق على اقتراحه.

غير أن السيد ثيودور لم يتكرم عليه بأي نصيحة. فبينما كان مايكل يعيد بناء الدرجات الأمامية ويركب نوافذ جديدة، اكتفى السيد ثيودور بالقليل من الكلام. وكلما أنجز ترميم جزء من منزله القديم، وجد نفسه أمام مهمة جديدة تظهر من العدم.

ولكن في السادسة صباحاً؟ كان تصرف السيد ثيودور مبالغاً فيه هذه المرة.

- كنت أتساءل...

تنهد مايكل في سره محاولاً أن يخمن ما يريده. ما الذي غفل عنه؟ ما الذي تغاضى عن إصلاحه في مشروع ترميم منزل السيد ثيودور المتداعي؟ أدرك مايكل أنه يشعر بشيء من الارتياح على الرغم من

استيقاظه في ساعة مبكرة فالمهم هو أنه سيجد ما يفعله اليوم.

حري به أن يشكر الله لأنه يجد دوماً ما يفعله. فلو بقي متبطلاً طوال الوقت، لشعر الآن بضياع أكبر من ذي قبل، تماماً كما كان ضائعاً قبل أن يأتي السيد ثيودور ويقرع بابه للمرة الأولى وينتشله من أمام الصور الرقمية لجهاز التلفزيون الحديث، وهو الغرض الوحيد الذي اشتراه بواسطة تلك النقود كلها.

لم يتوقع مايكل برويستر أن يصبح ثرياً إلى حد يفوق التصور في سن السابعة والعشرين. ولو حلم بهذه الثروة، لما اعتبرها لعنة. ولكنها كذلك وهو على استعداد لأن يعيد تلك النقود في الحال لو..

وأعلن السيد ثيودور بنبرة فرحة: «زينة الميلاد».

وإذ لاحظ نظرة الارتباك البادية على وجه مايكل أضاف: «عيد الميلاد. بات عيد الميلاد قريباً.. اليوم..».

ونظر إلى ساعته لمزيد من التأكيد قبل أن يضيف: «هو الخامس عشر من تشرين الثاني. إنني معتاد على تعليق زينة الميلاد في هذا التاريخ بالذات».

وجد مايكل نفسه عاجزاً عن استيعاب كلامه عن عيد الميلاد.. فعلى الرغم من الفوضى التي يتخبط فيها، لم يغفل عن زينة الميلاد التي طغت على كافة المتاجر. ومع ذلك، بدا وكأن هذا لم يسهم في لفت انتباهه إلى اقتراب الموعد المنتظر.

أحس مايكل بموجة من المشاعر تغمره. عيد الميلاد؟ بهذه السرعة؟ كيف يعقل هذا؟ شعر، تحت تأثير الصدمة، بعطر الصنوبر المميز، ورائحة الفطائر اللذيذة التي تعدها والدته، وعطر مستحضر ما بعد الحلاقة الذي يستعمله والده تعبق في أنفه. كان يسمع رنة ضحكات شقيقه، .. وكاد الإحساس بالوحدة وخسارة الأحبة يقضي عليه.

وإذا بالسؤال الذي يقضّ مضجعه ويجعله يتقلب ليلاً في فراشه، ويزرع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً، ويشاهد التلفزيون لساعات طويلة في

محاولة منه لإسكاته، يتأرجح عند طرف لسانه... حاول أن يكبحه ولكنه شعر وكأن السؤال سيخنقه إن لم يطرحه على أحد، ويصرخ بالكلمات عالياً.

- كيف سأتمكن من البقاء حياً؟

كان صوته طبيعياً للغاية، ولكن الريح الباردة اختارت تلك اللحظة بالذات لتعصف بقوة محوّلة صوته إلى همسة مفعمة باليائس.

جاءت النتيجة على قدر توقعاته ومخاوفه: فما من جواب على هذا السؤال. غير أن السيد ثيودور ما لبث أن لمس ذراعه، فوجد نفسه ينظر في تينك العينين الزرقاوين المليئتين بالقوة والحنو.

قال له الرجل العجوز بنبرة حازمة: «إبحث عن شخص أكثر بؤساً منك ومد له يد العون».

أخذ مايكل نفساً عميقاً. إنه حل مستحيل. لن يتمكن أبداً من العثور على شخص أكثر بؤساً منه.

فسأله بفظاظة: «أين تحتفظ بزينة الميلاد؟».

كان السيد ثيودور يحتفظ بزينة الميلاد في مرآب سيارته. وكم كانت دهشة مايكل عظيمة عندما أدرك أن كمية الأغراض المخصصة لتزيين المنزل من الخارج كافية لمنافسة بابا نويل... حبال تتدلى منها الأضواء وأكاليل... تمثال لبابا نويل ومجموعة كاملة من حيوانات الرنة... كان يملك أيضاً تمثالين بالحجم الطبيعي يمثلان العذراء مريم ويوسف، وإسطبلاً منحدر السطح لإيوائهما وحماراً للفناء الأمامي..

كان مايكل يجاهد لنقل الحمار الثقيل الوزن عندما وصل السيد ثيودور وسلمه قصاصة من الورق مطوية بعناية قائلاً له: «بشأن ما تحدثنا عنه سابقاً».

وربت على الحمار المصنوع من الخشب بفرح ثم ارتجف السيد ثيودور ونظر إلى ذراع مايكل العاري وهزّ رأسه متعجباً قبل أن يختفي داخل منزله. عمَّ تحدثا قبل قليل؟؟

وقف مايكل يحدق في قصاصة الورق وقد بدأت أولى ندف الثلج تتساقط عقب هبوب رياح ميشيغان التي يجدها معظم الناس قارصة إلى حد لا يطاق. كان بحاجة إلى حبل إنقاذ وليس إلى عبارة مقتبسة من الكتاب المقدس، أو الدالي لاما، أو أي شخصية أخرى تفتن السيد ثيودور حالياً. ومع ذلك، كبح رغبة جامحة اجتاحته بتكوير الورقة ورميها من دون أن يقرأها. لعله يجد في هذه الورقة ما يمكنه أن يتمسك به.. فتحها بلهفة رجل يخشى أن يتسلل الرجاء إلى قلبه.

أدرك مايكل أن العنوان المكتوب على عجل على الورقة يعود إلى الطرف الشرقي من جادة واشنطن، في حي هو الأكثر عنفاً على مقربة من الطاحونة المهجورة. ولفت انتباهه الاسم المدون تحت العنوان.

عندئذ، تذكر مايكل الحديث الذي دار بينهما في وقت سابق. إبحث عن شخص أكثر منك بؤساً....

وكان من الممكن أن يجد شخصاً أكثر منه بؤساً...

ومع ذلك، أثارت الكلمات المطبوعة على الورقة حيرته، كلمات تقول: «جمعية بابا نويل السرية».

* * *

تسعة وثلاثون يوماً قبل عيد الميلاد...

- أحتاج إلى جني.

وأضافت كريستين موريسون قائلة عبر الهاتف: «ولا أريد الجني الذي أرسلته لي السنة الماضية. ألا يفترض بي أن أكون متطلبة بشأن الجني الذي سأستخدمه؟ كان أخرق بحيث وقع عن متن المركبة».

شعرت بقشعريرة تسري في أوصالها، فعزت السبب إلى فتح الباب الأمامي الذي جعل نسمة تشرين الثاني الباردة تتسلل إلى الداخل.

- ثمة نقص في عددهم؟ تعني أن ثمة نقص في المتطوعين للعب دور الجني... ما هو المبلغ المتوجب علي دفعه للحصول على جني كفؤ لا يقع عن متن المركبة؟

تكلمت بثقة فائقة بالنفس وكأنها تملك المال الكافي لاستخدام جني مع أنها لا تفعل.

- خمسمائة دولار؟ هل أنت جاد في ما تقوله؟ هذه سرقة! أي نوع من الأشخاص قد يقدم على سرقة بابا نويل؟

أمعنت النظر عبر باب مكتبها في الشخص الذي دخل إلى المتجر. لم تعد الرؤية واضحة كما في السابق. فبعد أن كان متجرها متجراً صغيراً للبيع بالتجزئة، بات الجزء الأمامي يعج بالألعاب إذ وصلت بعد ظهر اليوم ستون علبة جديدة من الدراجات الثلاثية العجلات، ما ساهم في سد الباب الأمامي.

لا بد من تجميع الدراجات. حفظت هذه الملاحظة السريعة في ذهنها وهي تدرك أن قائمة الأولويات طويلة جداً. لمحت بطرف عينها الزائر الذي دخل المتجر فحبست أنفاسها لا إرادياً وهي لم تعد فجأة واثقة ما إذا كان الهواء قد جعلها ترتعش.

كان الرجل ضخم الجثة، طويل القامة، وقد انهمك بإزالة بقايا الثلج المتساقط عن كتفيه العريضتين إلى حد مذهل. لم يكن يضع قفازين، مع أن الشتاء أعلن وصوله مساء البارحة بطريقة عنيفة، وتمكنت من رؤية يديه مع إمعانها في النظر.

يدان قويتان قادرتان على كل شيء... يدان قادرتان على جعل المرأة تدرك أنها وحيدة وأن ثمة أمور لن تفلح أبداً في القيام بها مهما بلغت درجة استقلاليتها.

كان من هذا النوع من الرجال... نوع يحرك داخل المرأة، فجأة ومن دون سابق إنذار، مشاعر اللهفة التي نجحت في معظم الأحيان في إبقائها مكتومة حتى عن ذاتها.

كان ساحراً بطريقة غامضة، بشعره الأشعث الذي يحاكي لونه لون الشوكولا الغنية والذي يصل إلى طرف ياقته، وعظام خديه المنحوتين اللذين تعلوهما شعيرات خشنة، ما يبرز ذقناً يشكل إطاراً مثالياً لشفتين

ممتلئتين لا تعرفان معنى الابتسام.

وعيناه! آه من عينيه!

عينان تتميزان بخضرة غريبة لم ترَ لها مثيلاً من قبل، تعلوهما أهداب كثيفة سوداء حالكة إلى حد مهلك.

قالت له بصوت عالٍ: «سآتي في الحال».

وأشاحت بنظرها بعيداً عنه في محاولة منها لتركز اهتمامها على المسألة العالقة بين يديها: «خمسمائة دولار لاستخدام جني؟ أين روح الميلاد؟ عيد ميلاد مجيد لك أيضاً».

أقفلت السماعة بعنف وجلست تحدق فيها. وأخيراً، شقت طريقها نحو واجهة المتجر.

كان المكان ضيقاً جداً فوقعت بعض علب الدمى من أعلى كومة الألعاب الأخيرة التي يفترض بها بيعها، قبل أن تصل إلى المساحة الصغيرة الفارغة قرب الباب الأمامي.. مساحة كان يملؤها بحضوره.

التقط علب الدمى قبل أن تلمس الأرض مظهراً خفة وسلاسة ورشاقة تضاهي صفات أفضل الرياضيين فأصبح على مسافة قريبة جداً منها، ووجدت نفسها مرغمة على مد عنقها إلى الأمام لتتمكن من النظر إليه. وشعرت بعبير النظافة والنضارة يغمرها.

رباه! ليته لم يكن ملفتاً للنظر عن قرب أكثر مما هو عليه عن بعد! باستثناء عينيه... مع اقترابها منه، لاحظت كريستين شيئاً غريباً يلقي بظله على خضرة عينيه، بدت كطبقة الجليد التي تغطي سطح بركة من الماء. حاولت أن تعطي اسماً لهذا الشيء لكن من دون جدوى...

نظر إلى الدمى التي أُلبست فساتين شبيهة بفساتين الأميرات ثم سلمها إليها وكأنه يخشى أن تحرق يديه إن بقي ممسكاً بها وقتاً أطول.

قالت له بنبرة جافة: «شكراً».

وكبحت جماح نفسها لئلا تضيف قائلة: لا أظن أن هذه الدمى قادرة على ايذاء الشبان الأقوياء، الشديدي الرجولة.

وعندما لم يسارع إلى الإفصاح عما جعله يدخل من هذا الباب الذي كتب عليه «جمعية بابا نويل السرية»، قالت له: «لا يخيل إلي أنك أتيت لتسليم إحدى لوائح بابا نويل».

لم يتكبد عناء الرد، بل اكتفى بمد يده إلى الوراء ليصفق الباب الذي كان الهواء البارد يتسرب منه.

«آه»... كانت كريستين تعي أن المتجر قائم في أحد الأحياء العنيفة من المدينة. ولطالما لفت الجميع انتباهها إلى ضرورة أن توصد الباب بالمفتاح عندما تكون في المتجر بمفردها. ولكن ماذا لو جاء أحدهم ليسلم إحدى لوائح بابا نويل ووجد الباب موصداً؟

أحست بالارتعاش... فإحساسها القوي بهذا الرجل الذي ظهر فجأة في عالمها لم يكن من النوع المثير للخوف ولكن من النوع الذي ينبئ بالخطر.

إنه يتميز بجاذبية فائقة تثير في قلب فتاة فقدت إيمانها بالقصص الخيالية إحساساً بوجود خطر محدق بها، وكأنه يفترض بها أن تعيد النظر في معتقداتها. فقد مضت أربع سنوات...

- حسناً، أنت لا تحمل أي من لوائح بابا نويل.

وأدركت أن نبرة الفرح في صوتها مفتعلة، وأنها كانت تقاوم شعوراً غريباً في داخلها.

- كيف يسعني خدمتك؟

كان يتأملها وفي عينيه شيء من الاهتمام، عينان بدتا لها أكثر غموضاً وعمقاً وهي تحدق فيهما مطولاً، رغم افتقارهما إلى الدفء. كانتا تنطويان على شيء خفي ذكّرها بجبل الجليد...

- سمعت أنك تبحثين عن جني.

حملت كلماته في طياتها شيئاً من الدعابة التي تتعارض كلياً مع النظرة التي في عينيه. كانت طريقة أداءه جامدة خالية من أي تعبير، وسرعان ما أدركت أنه سمع حديثها على الهاتف. تسمّرت كريستين مكانها منتظرة أن

يفتر ثغره عن ابتسامة خجولة. أرادت التأكد ما إذا كانت هذه الابتسامة ستضفي القليل من الدفء على نظرته، غير أن آمالها كلها ذهبت هباء. قالت له: «جني.. إنني بحاجة ماسة إلى جني ولكن طولك لا يتوافق مع الشروط المطلوبة. إذ لا ينبغي أن يتجاوز طول المتطوع للعب دور الجني الأربعة أقدام و١١ بوصة... في السنة الماضية، كان طول الجني أربعة أقدام وسبع بوصات».

ووجدت نفسها تحبس أنفاسها منتظرة منه أن يبتسم.

- ولكنه لم يفلح في أداء المهمة.

بدا واضحاً أنه سمع حديثها كله... ولم ترَ أثراً لأي ابتسامة بعد. فمن يمتنع عن الابتسام عند سماعه قصة هذا الجني لا يمكن أن يبتسم لأي سبب كان ما ترك في نفسها تأثيراً سخيفاً. وأحست برغبة لا تقاوم في جعله يبتسم.

قالت له متجاهلة ما يفترض بها أن تفعله أو أن تمتنع عن فعله: «كان يعامل بابا نويل معاملة فظة طالباً منه أن يبذل جهداً أكبر».

وسط توقها الشديد لجعله يبتسم، شعرت بشيء يتأجج في صدرها. لطالما انزعجت كريستين من احمرار خديها خجلاً، وذلك منذ كانت تلميذة على مقاعد الدراسة، لكنها نجحت في السنوات الأخيرة في التغلب على موجة الإحراج القرمزية التي تجتاحها من خلال تحويل تفكيرها سريعاً إلى أي أمر آخر.

أجابها قائلاً: «أرى أنه سبب وجيه لاستبداله بجني أطول قامة إذ من الصعب التنبؤ بتصرفات قصيري القامة منهم».

- لم يسبق أن استخدمنا واحداً طويل القامة...

- يؤسفني سماع ذلك. فهذا الإجراء غير عادل ويعاقب عليه القانون الخاص بتساوي الفرص.

- في الواقع إن ما ينبغي أن يُعاقب عليه فعلاً هو انتحال صفة الجني.

خطرت في بالها عبارات عديدة وغريبة لكنها أرغمت نفسها على أن

تغمض عينيها للحظات. وعندما فتحت عينيها من جديد، قالت له بصوت خافت لا بل أكثر خفوتاً مما توقعت: «عليك تناول كعكة الميلاد رغماً عنك، وانشاد اناشيد الميلاد».

ولم يبتسم إلا أنها لم تغفل عن ذلك الطيف الذي مر في عينيه، طيف هو أشبه ببريق شعاع شمس ومض عبر طبقة الجليد الأخضر.

سألها: «من ينتحل شخصية من؟ سمعتك تدعين عبر الهاتف أنك بابا نويل.. إنها كذبة واضحة لأن بابا نويل لا يعتبر كعكة العيد، وأناشيد الميلاد عقاباً.. بالمناسبة، لا أرى أي أثر للحية البيضاء والبطن المنتفخ».

كانت هي من ابتسم هذه المرة وقد أبهجها هذا الحوار العفوي الخطير مع شخص غريب شديد الغموض، دخل متجرها في هذا النهار الكئيب الممل. بقيت مبتسمة إلى أن لاحظت أنه يتفحصها، فأدركت أنها تبدو بعيدة كل البعد عن بطلات الحكايات الخرافية التي تنتهي بعبارة «وعاشا معاً في سعادة إلى الأبد». فالقسم المخصص للمستودع في المبنى والقائم خلف مكتبها، مكسو بالغبار وشديد البرودة ما جعلها تختار تنورة بنية داكنة، وجوارب تبعث الدفء، وحذاءً عملياً فضلاً عن سترة تصل إلى المرفقين. وبدا شعرها فجأة مريعاً، وتمنت في سرها لو أنها رضخت لطلب المتطوعة «لولو» التي توسلت إليها في الأسبوع الفائت كي تسمح لها بأن تصبغ بعض خصل شعرها البني بلون أشقر لامع.

قالت لها لولو: «أنت في الثالثة والعشرين من العمر يا كريستي ولكنك تبدين كامرأة في العقد الرابع».

وتساءلت في تلك اللحظة ما إذا كانت تبدو كامرأة في الأربعين من عمرها مؤكدة لنفسها أن الرجل هو السبب في ارتباكها. فتلك الفتاة التي امتنعت عمداً عن مواعدة الرجال منذ أكثر من أربع سنوات، بدت فجأة قلقة بشأن سترتها ولون شعرها وتذكرت، والحزن يغمر قلبها، أقلام

أحمر الشفاه الأربعة والعشرين الموضوعة على مكتبها والمرسلة إليها كهبة.

قالت له باذلة ما بوسعها لإخفاء الارتباك الذي كانت تشعر به: «ليس باليد حيلة إذا كانت نظرتك إلى بابا نويل محدودة إلى هذا الحد. أنا بابا نويل في هذا المكان أو يمكنني القول على الأقل، إنني أجسد روحه وأحرص على أن يحظى الأولاد في الجوار بهدايا عيد الميلاد».

أجابها قائلاً: «يمكن حتى لأكثرهم انفتاحاً وتسامحاً أن يصاب بصدمة عندما يعلم أنك بابا نويل».

لم تظهر على وجهه علامات التأثر بحبها للغير، باستثناء ذلك الخط الساخر الذي ازداد عمقاً عند طرف فمه. انزعجت كريستين لدى إدراكها مدى توقها إلى إثارة إعجاب هذا الرجل الغريب بنشاطاتها وإنجازاتها، ربما لأنها كانت تعلم في قرارة نفسها أن مظهرها فشل تماماً في التأثير فيه.

- حسناً، لن يعرف أحد الحقيقة. ولهذا السبب، أطلقنا على جمعيتنا اسم «جمعية بابا نويل السرية». وفي كل سنة، نختار متطوعاً ليلعب دور بابا نويل.

وجدت نفسها تقدم له معلومات مملة قد لا يرغب في الاطلاع عليه، وهي تعي تماماً أنها اتخذت موقف الدفاع عن النفس بعد أن شعرت بخطر يحدق بها.

لماذا؟ هل التواء فمه سخرية هو السبب؟ أم لأنه ينظر إليها وكأنها تدّعي الفضيلة؟ أو ربما لأن الفرصة كانت متاحة أمامها لتصبغ شعرها ولم تفعل؟

بدا واضحاً أن الوقت حان لإنهاء هذا اللقاء. فقالت له: «حسناً، ثمة الكثير من الأعمال في انتظاري إلا إن كنت ترغب في مقاضاتي لأنني لا أملك وظيفة شاغرة لجني».

متى كانت آخر مرة حرك فيها رجل مشاعرها؟

إنها مسألة في غاية السهولة. ففي عامها الأول في الكلية، ارتبطت كريستين بعلاقة جدية مع زميل لها، يدعى جايمس موريارتي. وقد نجح هذا الأخير، على مدى ستة أسابيع تقريباً، في التظاهر بشدة افتتانه بها لأنه كان بحاجة إلى ما يساعده في امتحان الرياضيات.

ولن تنسى أيضاً زوج أختها السابق الذي كان يقطن في المنزل المجاور وادّعى أنه الزوج المثالي. لكن وفيما كانت العائلة كلها بحاجة إليه ليساندها، ما الذي شغله؟ انشغل بالعبث مع سكرتيرته.

شعرت بقشعريرة تسري في جسمها. هذه هي الأسباب التي جعلتها تفقد إيمانها بالقصص الخيالية. فالرجال، مهما اختلف مظهرهم، يوهمونك بحقيقة ليست حقيقتهم، لاسيما أمثال هذا الذين يتميزون ببنيتهم القوية، ويتحلون بثقة فائقة في النفس ووسامة تفوق الوصف.

ومع أن الرجل الواقف أمامها بدا بعيداً كل البعد عن التظاهر، لاحظت في أعماق تينك العينين الباردتين اللاذعتين إلى حد الذهول أموراً حقيقية تشكل خطراً على الحجاب الواقي لقلبها.

قال لها متجاهلاً محاولتها صرفه: «لست قاسي القلب إلى هذا الحد لأقاضي جمعية بابا نويل السرية».

شكّلت كلماته خير إثبات على ما لمحته في تعابير وجهه، إذ بدا عليه نوع من الملل من الوجود، ملل مفعم بالسخرية. لم يكن من أولئك الرجال المرحين، الطيبي القلب الذي اعتادوا أن يقصدوا الجمعيات الخيرية ويتطوعوا للعمل فيها.

أجابته بصوت جدي متعمدة أن تصرفه بطريقة مهذبة: «حسناً.. ما من وظيفة شاغرة لجني».

لم تغب عنها نبرة الأسف المتمردة في صوتها وكأنها كانت تتمنى أن تؤمن له عملاً، مع أنها تعي تماماً أن رجلاً مثله لا يمكن أن يتطوع أبداً للعمل في جمعية مماثلة. وقررت في سرها أنه لا يعجبها.. أو لا تعجبها على الأقل معاملته لها، فتوهج خداها خجلاً.. فالمشاعر المتأججة في

صدرها أخذتها على حين غرة.

وعندما علا الاحمرار خديها، اجتاح اللون القرمزي وجهها من طرف فكها حتى أعلى جبينها.

وفي تلك اللحظة، ارتسمت ابتسامة على ثغره، ابتسامة معذبة ليست سوى التواء بسيط لشفتيه وكأن البسمة قد تسبب له الألم.

لكن تلك الابتسامة لم تلامس عينيه.

- يمكنني القيام بأعمال أخرى إلى جانب لعب دور الجني.

سألته لاهثة: «ما هي الأعمال الأخرى التي تجيد القيام بها؟»

بدا سؤالها سخيفاً لاسيما وأنها شعرت بأنه قال ذلك على مضض.

اتخذت كريستين في سرها قراراً بإبعاده عن المكان وقد بدا واضحاً لها أنه من النوع القادر على إيذاء المرأة، خاصة امرأة مثلها، وإلى أقصى حد. كان قادراً على القيام بذلك من دون أن يتكبد أي عناء.

تلاشت ابتسامته كلياً ووقف يحدق فيها لبعض الوقت وهو مستغرق في التفكير. وامتدت تلك اللحظة إلى ما لا نهاية.

أدركت كريستين مذعورة أن دفاعاتها لم تعد حصينة.

كان معظم الرجال على استعداد لاستغلال الفرص المتاحة ليثبتوا لها مهاراتهم التي تفوتها. لكن هذا الرجل لم يحاول استغلال الفرصة للتودد إليها مع أن مظهره يدل على أنه يجد راحة كبرى في مغازلة النساء، النساء الفاتنات اللواتي يصبغنّ شعورهنّ، ويحرصنّ على استعمال أحمر الشفاه كل يوم ويرتدينّ سراويل الجينز الضيقة التي تصل إلى الوركين بدلاً من التنانير البنية الرثة...

خطر لها أنه لن يجيب أبداً إلا أنه عاد وقال لها بصوت أجش: «إنها مسألة وجهة نظر. هل من أعمال أخرى ترغبين في القيام بها؟»

كانت أفكارها متمردة... أيعقل أن تتواجد أي امرأة في غرفة واحدة مع رجل مثله ولا تفكر في الأمور التي يمكنه القيام بها؟

تفاجأت من نفسها ومن أفكارها.

عاشت كريستين في السنوات الأربع الأخيرة حياة شبيهة بحياة الراهبات. ففشل زواج بيكي، بعد علاقة حب عاصفة وجدت كريستين فيها خير مثال لها، كسر شيئاً في قلب كريستين. وبدأت بيكي بمواعدة كينت بعد انفصالها عن جايمس، في الوقت الذي اتخذ فيه والدا كريستن قراراً بإنهاء زواجهما الذي دام عشرين سنة. فدفع هذا الأمر بالمراهقة الحساسة البريئة إلى أن تحول حاجتها إلى الإيمان بالحب نحو بيكي وكينت. إلا أنهما عززا في نهاية المطاف مخاوفها الأكثر عمقاً إذ أدركت أن الأمور التي تبدو صلبة قد تكون هشة إلى حد يسحق القلب.

سألته من دون أن تسعى إلى إخفاء شكوكها: «أهذا هو السبب الذي جاء بك إلى هنا؟ أتريد حقاً أن تتطوع؟»

تردد قليلاً قبل أن يومئ برأسه بالموافقة، إيماءة هي أشبه باحناءة بسيطة للرأس.

- إنني أمارس مهنة النجارة فهل ترغبين في بناء شيء ما؟

تنهدت كريستن في سرها. ثمة أعمال كثيرة عليها أن تقوم بها هذا إذا ما أخذت عرضه على محمل الجد، بدءاً بالستين دراجة.

كانت تدرك تماماً أنه لم يأتِ إلى هنا لمساعدتها، على الرغم من حاجتها الماسة في هذه المرحلة إلى رجل قوي، صلب البنية، لإفراغ الشاحنة ووضع الأغراض الثقيلة على الرفوف. نجار؟

كانوا يحرصون في كل سنة، على بناء عربة لتسليم الهدايا؛ عربة يضعونها على سطح القاطرة المتزعزع. وفي كل سنة، كانت تحمد الله على نجاة الجميع من الأذى وصمود العربة طوال فترة عيد الميلاد.

أيعقل أن تسمح لوسيلة إغراء مثله بالتسلل إلى عالمها؟

إلى جانب هذا، لم يكن من السهل عليها أن تصدق أنه جاء إلى هنا ليتطوع فهو لا يبدو من هذا النوع على الإطلاق. لا، لا بد أنه سلك المنعطف الخاطىء وقرر أن يلهو لبعض الوقت على حسابها.

في عالم القصص الخيالية، كان من الممكن أن تجد في هذا الرجل

خير معين لها لتجميع الدراجات وبناء عربة آمنة لبابا نويل.

في عالم القصص الخيالية، كان من السهل أن تجد فيه حلاً لكافة الأمور التي تزعجها بما في ذلك واقع أنها غالباً ما تستيقظ في الليل وتشعر بنفسها ضعيفة من شدة إحساسها بالوحدة.

ولكن الحياة لقنتها درساً قاسياً وقضت على أحلامها الوردية وجعلتها تدرك أن المرأة العاقلة لا تعتمد إلا على نفسها.

ماذا يكمن تحت تلك الطبقة الجليدية ويجعلها تؤمن بوجود شيء خفي؟ شيء قد يحطم فؤادها من دون سابق إنذار... وكأن فؤادها لم يتحطم من قبل.. فؤادها.. وفؤاد أختها... وأختها.. وزوج أختها.. وابن أختها...

ذلك العالم الذي كان يبدو في غاية الصلابة... وذلك النذر الذي كان يبدو غير قابل للكسر.. تلاشى بومضة عين..

استدارت نحو مكتبها وهي تفكر في السلامة من كافة الضغوط التي تتعرض لها غير راغبة في الغوص في الأحلام المحطمة.

قالت له محاولة صرفه من جديد: «علي أن أبحث عن جني وأؤمن خمسين سترة واقية من المطر للأولاد.. هذا ما علي أن افعله».

كان ذلك كافياً لإخافته، إلا أنه لم يكن من النوع الذي يمكن إخافته بسهولة. وساد صمت مطبق بينهما فيما نظرت إليه بطرف عينها. لم يحرك ساكناً وبقي واقفاً مكانه فوق بركة الماء الصغيرة التي تجمعت على الأرض بعد ان ذاب الثلج عن ملابسه. كان يرتدي سترة من الجلد الأسود، سترة رقيقة بالية لا تتلاءم مع البرد القارس الذي اتسم به هذا النهار، وسروالاً من الجينز ممزقاً عند الركبة مع أن الطقس لا يشجع على تعرية أي جزء ولو بسيط من الجسم.

وبدلاً من إظهاره في مظهر الرجل الفقير، أضفت السترة الرثة وسروال الجينز الممزق عليه سحراً خاصاً.

أدركت في تلك اللحظة أنها كانت تتأمل رجلاً لا يكترث البتة

لمظهره، أو البرد القارس أو ربما لأي شيء على الإطلاق.

كان ينتمي إلى تلك الفئة من الرجال التي لطالما حذرتها والدتها منها. . . . أمها التي عجزت عن إصلاح زواجها. . والدتها التي وافقت على زواج بيكي من كينت. .

هزت كريستن رأسها وأشاحت بنظرها بعيداً عنه لئلا يلاحظ اضطرابها. وإذ عادت والتفتت نحوه، رأته يومئ برأسه باقتضاب قبل أن يستدير ويخرج من الباب مخلفاً وراءه موجة أخرى باردة.

لاحظت كريستن أنها تحاول أن ترى إلى أين ذهب، لكن الثلج المتساقط بغزارة جعله يتوارى بين كتله البيضاء الناصعة فشعرت وكأنه مجرد سراب وليد خيالها ولم يكن له أي وجود في الأصل.

رفعت كتفيها بلامبالاة وتوجهت نحو مكتبها قائلة: «كان لقاءً غير متوقع ومن النوع الفائق الغرابة».

فتحت روزنامتها. . . تسعة وثلاثون يوماً. . . ثمة أعمال كثيرة في انتظارها والوقت بدأ يداهمها. لم يكن بوسعها أن تضيع لحظة واحدة في التفكير في عينيه الخضراوين. . . ما هو سرهما؟ أهي الوحشة؟؟ كلا. . إنها الوحدة. . وحدة يعاني منها رجل رأى الجحيم بأم عينه. . .

لعله من الخطورة أن تشفق على حاله أو تسمح لنفسها بالوقوع أسيرة تينك العينين الغامضتين.

فُتح الباب من جديد فالتفت على عجل مشمئزة من نفسها لأنها ودّت لو يكون هو. ولكن آمالها خابت. كان السيد «تامبل»، ساعي البريد المقيم في الجوار، والذي لم يكن يعمل في تلك الحقبة من السنة كساعي بريد فحسب.

- يعاني ولدا آل جونسون من الفقر ولا يتوقعان أن يحظيا بأي شيء على الإطلاق ولا يملكان أي أمل. . . تصوري أن هذين المخلوقين الصغيرين لا رجاء لهما في الحياة. . . طلبت منهما أن يتظاهرا بأن ذلك يمكن أن يحصل.

- إذن؟

ناولها ورقة صغيرة وعيناه تومضان ببريق غريب؛ كان السيد تامبل الأكثر حماسة بين المتطوعين والجاسوس الأكثر حذاقة في الجوار.

قرأت على الورقة عنوان الولدين المقيمين في منزل متداعٍ في الشارع الخامس. . كان هانز يرغب في دراجة هوائية ولارز بكرة سلة.

- لا بأس!

وأحست لبرهة من الزمن بعبء هذه الأمنيات الذي ألقي على كاهلها. لم تكن تأبه مطلقاً لواقع أنها لا تملك الكثير من النقود أو متسعاً من الوقت؛ ففي كل سنة تواجه المشكلة نفسها، وفي كل سنة، تحصل معجزات. . إذ يكفي أن تجري المزيد من الاتصالات الهاتفية، وتُرسل المزيد من الرسائل وتعد المزيد من البرامج الإذاعية.

كما أنها تشعر دوماً بالارتياح عند تلقيها طلبات يمكن تلبيتها إذ كانت تحتفظ بملف اطلقت عليه اسم «ملف الأحلام المستحيلة» للأمنيات التي يُتعذر عليها تحقيقها.

- أحضرت لك شيئاً آخر يا كريستي.

وقدمه لها وقد انفرجت أساريره فرحاً.

لم تصدق كريستن عينيها فسألته وهي تأخذ الكتيّب منه بوقار: «أين عثرت عليه؟»

أجابها ممازحاً: «يمكنني إخبارك ولكن أخشى أن علي أن أقتلك بعدها».

إنه كتيّب الميلاد الخاص الصادر تحت عنوان «القليل من الحب» والمخصص للهواة الذين بلغوا درجة متقدمة جداً في جمع هذا النوع من التماثيل الصغيرة الثمينة. وأصبحت كريستين تملك اليوم اثني عشر تمثالاً صغيراً من أصل المئات التي ابتكرها الفنان وذلك بفضل الهدايا التي تلقتها والقطع التي اكتشفتها في متجر للسلع المستعملة.

تضم مجموعة «القليل من الحب» تماثيل خزفية صغيرة، مطلية يدوياً

ابتكرها الفنان «لو ليتل» في الخمسينات. تجسد التماثيل كلها زوجين شابين هما هاربيت وسميدلي، وتصور مشاهد مبهجة من حبهما. بفضل براعته، تمكن ليتل من نقل كافة التفاصيل التي من شأنها أن تأسر القلوب: من البراءة إلى السحر مروراً بالإعجاب المتبادل، حتى ليخيل إلى المرء أن البئر الذي يستقي منه مواده لا ينضب أبداً.

هرعت إلى مكتبها باذلة ما بوسعها لئلا تبدو متلهفة أو فظة، وأقفلت الباب وراءها ثم فتحت الكتيّب ووقفت تحدق فيه لاهثة.

جسدت مجموعة لو الجديدة، الصادرة تحت عنوان «القليل من التاريخ»، هاربيت وسميدلي في حقبات تاريخية مختلفة: ها هو طيار في الحرب العالمية الأولى يطل برأسه من الطائرة ليقبل هاربيت؛ وها هو رائد منهمك في بناء منزل له وهاربيت واقفة تتأمله.

وفجأة، رأته.. «فارس ذو درع لامع»... إنها أجمل قطعة رأتها كريستن وتجسد سميدلي ممتطياً حصاناً أبيض مدهش، رافعاً مقدم خوذته ومنحنياً نحو الأسفل ليقبل هاربيت...

أجفلت كريستين عند رؤيتها ثمن القطعة وسرعان ما أدرجتها، شأنها شأن كافة القطع في هذا الكتيّب، ضمن ملف الأحلام المستحيلة.

وضعت الكتيّب جانباً على مضض. كان من المفترض أن يساهم ذلك الكتيّب في محو ذكرى اللقاء الغريب من ذهنها. وكم عظمت دهشتها عندما أدركت أنه لم يفعل. فقد بقيت أفكارها تائهة مشتتة، ما جعلها عاجزة عن إنجاز مهمة مسك الدفاتر، مهمة لا تتطلب منها الكثير من الجهد عادة لكنها تعد من أكبر المسؤوليات الملقاة على عاتقها نظراً لأنها من أسس جمعية بابا نويل السرية وهي الموظفة الوحيدة فيها التي تتقاضى راتباً. وبدلاً من أن تلهي نفسها بصورة سميدلي، بقي بالها مشغولاً طوال فترة بعد الظهر بتينك العينين الخضراوين اللتين تضاهيان بركة الجليد برودة.

٢ - خشبة الخلاص

عندما خرج مايكل بروستر من باب مقر جمعية بابا نويل السرية، كان الثلج يتساقط بغزارة. يقع مقر الجمعية في منطقة هي الأكثر قذارة في واشنطن. لفت انتباهه رجل يقف في الرواق المجاور للمبنى حيث المكتب. أتراه يتحيّن الفرص ليتسلل من ذلك الباب ويرضي نزواته؟

كانت كريستن قد غطت النوافذ بأوراق سميكة لاصقة لمنع الأولاد من استراق النظر إلى نشاطاتها السرية. لكن كان من الأفضل لها ألا تسد النوافذ بهذه الطريقة حفاظاً على سلامتها الشخصية.

رمق مايكل الرجل بنظرة جعلته ينطلق بخطوات سريعة. لم يكن من المستحب على الإطلاق أن تعمل فتاة مثلها في حي مماثل لاسيما وأن كل شبر من ذلك المتجر محشو بسلع مرغوب فيها: من الدببة الصغيرة إلى المعدات الالكترونية مروراً بالدرجات الثلاثية والدمى.

تنتمي كريستن إلى تلك الفئة من النساء اللواتي يثرنّ رغبة الرجال في حمايتهنّ؛ ربما لأنها اختارت أن ترتدي ملابس فضفاضة جعلتها تبدو رقيقة وصغيرة. لكنها لم تتمكن من إخفاء قوامها الرشيق وأنوثتها الجميلة التي يمكن أن توقعها في ورطة في هذه الناحية النائية من واشنطن. ولم يكن مظهرها يوحي بأنها تتحلى بالقوة الجسدية اللازمة للدفاع عن نفسها إذ بدا معصماها غاية في الرقة بحيث رغب في إحاطتهما بإبهامه وسبابته للتأكد ما إذا كانا رقيقين بقدر ما يبدوان عليه.

وعيناها! آه من تينك العينين الرماديتين الواسعتين اللتين تعلوهما أهداب طبيعية مذهلة لم يرَ لها مثيلاً من قبل... عينان أضفت سحراً فريداً على مظهرها العادي جداً..

شيء ما فيها أثار اهتمامه رغماً عنه... أتراه تجنبها لإبراز مفاتنها؟ ما

الذي يرغمها على إدارة هذا المتجر المكدس بالسلع وحدها في هذا الحي؟ أتراها شجاعة إلى حد يفوق التصور أم ساذجة فحسب؟ إنما لا شك أن الملائكة تسهر على سلامة أمثالها . . .

قطب جبينه رافضاً الإقرار بهذه الفكرة غير المرغوب فيها فهو يدرك أكثر من سواه أن الملائكة لا تسهر على راحة الناس كلهم . . . . حسناً، لقد استجاب لرغبة السيد ثيودور وقصد العنوان الذي دونه له ظناً منه أنه سيعثر فيه على شخص أسوأ منه حالاً .

من الواضح أنها ليست المقصودة . .

لم تكن تملك ذرة من الجمال والفتنة باستثناء عينيها . . . وعاد يفكر فيهما من جديد . . عينان متألقتان واسعتان، فيهما بريق غريب يجعل الرجل يتغاضى عن كنزتها الشبيهة بتلك التي اعتادت جدته أن تحيكها . صحيح أنه صعق لدى رؤيته تسريحة شعرها القديمة الطراز، إلا أنها أعجبته لسبب يجهله تماماً .

كان شعرها البني الفاتح ينسدل متموجاً على كتفيها ولا يتميز بأي شكل معين . وقد ذكّره مظهرها بالفتيات اللواتي عرفهنّ في المدرسة الثانوية ولم يبقَ منهنّ في ذهنه إلا ذكرى مبهمة . . . فتيات ذكيات، بارعات، يعشقن الدراسة ولا يلفتنّ انتباه أحد . . لم تكن من النوع الذي يتظاهر بالخوف من العنكبوت أو يرمي كتبه بغنج ودلال عند اقتراب رجل مكتمل الرجولة منها . . . ولم تعمل على صبغ شعرها بلون أشقر صارخ، أو شفتيها بلون أحمر فاقع، أو على تقليم أظافرها الطويلة، كما أن الكحل لا يذوب عن أهدابها عندما تبكي . بعبارة أخرى، لم تكن من النوع الذي يسهل فهمه من النظرة الأولى . . . وهو لا يرغب في هذا على الإطلاق .

لم تعد النساء يحركن مشاعر مايكل منذ زمن بعيد جداً . . . أو لعله لم يتأثر من قبل بامرأة مثلها : ذكية وصادقة وبعيدة كل البعد عن العجرفة . . في تلك اللحظة، نبه مايكل نفسه إلى أن النساء يستنفدنّ طاقة الرجل وقوته كلها . إنها مسألة حسابية في غاية البساطة لأنه لم يعد يتحلى بأي

ذرة من القوة، وامرأة مثلها تدير جمعية بابا نويل السرية بمفردها تتطلب جهداً أكثر من سواها، على الرغم من بساطة مظهرها . . فعيناها تخفيان طبيعة غامضة، حساسة، ذكية ومرحة .

شعر بالانزعاج لمجرد تفكيره فيها . . . . كانت مهمته الأساسية، إن صح التعبير، تقضي بالعثور على شخص يتعذب أكثر منه . من المؤكد أنها ليست ماما نويل، ذات القلب المؤمن بأن الأعمال الخيرية التي تقوم بها ستقيها حتماً من الأذى في هذا الحي الرهيب .

ولكنها ذكرت أمامه أن بعض الأولاد بحاجة إلى سترات بعد أن ظهرت البوادر الأولى لبرد الشتاء . وتساءل في سره عما قد يشعر به الوالدان إذا ما عجزا عن تأمين سترة لولدهما المرتجف من البرد .

لا شك أن عذابهما ليس أسوأ من عذابه أو لعله عذاب من نوع مختلف . لعل السيد ثيودور أرسله إلى هذا المكان وهو يعي تماماً أنه سيجد فيه وسيلة تلهيه مع اقتراب فترة الميلاد حيث يجتمع أفراد العائلة كلهم . . . فترة تتفاقم فيها عذاب العائلات التي لا تملك شيئاً . . . فما حال شاب مثله يملك كل شيء إلا العائلة؟

أخذ نفساً عميقاً مرغماً نفسه على استجماع أفكاره . من الأفضل له أن يهتم بكل مسألة على حدة . . وينجز كل مهمة على حدة . . . ففي الوقت الحالي، عليه أن يؤمّن خمسين سترة للأولاد وجنياً . . هز مايكل رأسه وكأنه ملاكم تلقى ضربة من خصمه على حين غرة . .

صحيح أنها ليست الوسيلة الأفضل لخلاصه لكنها الوحيدة المتوفرة أمامه؛ وإذا لم ينجح في العثور على ما يهتم به فسيعود ذلك السؤال ليقض مضجعه : كيف سأتمكن من البقاء على قيد الحياة؟

انهار عالمه كله ولم يتبقَ منه شيء . . كان الثلج يتساقط من حوله بغزارة ما جعله يدرك أن عليه أن يشعر بالبرد، لكنه فقد هذا الشعور منذ زمن بعيد جداً . اعتاد في الماضي أن يتخلى مرتين في السنة عن عمله ليرافق أفراد العائلةفي رحلة إلى ألاسكا للصيد . . .

وبعد تمضية ست ساعات في مياه البحر الجليدية الرمادية، كان

مايكل يفقد الإحساس بالبرد. أو حتى بالدفء... كان يشعر بأنه عالق في مكان ما بين البرودة والحر، مكان يبقى فيه على قيد الحياة ليس إلا.

كان يركز اهتمامه على المهمة التي بين يديه، تماماً كما ركز اهتمامه، أثناء عمله في منزل السيد ثيودور، على ما يراه أمامه: سلم متداع، إطار نافذة عفن أو صنبور تتقطر المياه منه... توقف عند أقربَ هاتف عمومي. وعلى الرغم من أن الجزء الأكبر من دليل الهاتف كان ممزقاً، إلا أنه وجد قسم الملابس في الصفحات الصفراء سليماً.

لكنه عاد وأدرك أنه ليس واثقاً تماماً مما يريده. معاطف كبيرة أو صغيرة؟ معاطف للفتيان أو للفتيات؟ ماذا عن الأطفال؟ والمقاسات؟

نظر بطرف عينه إلى أسفل الشارع.. يمكنه أن يعود ويسألها عما تحتاجه بالضبط لكنه لم يشأ ذلك. ووجد نفسه تواقاً لمفاجأتها، إذ بدا واضحاً من التعابير التي ارتسمت على وجهها أنها لا تتوقع منه خيراً على الإطلاق، كما لو أنها واثقة من أنه لن يعود أبداً. لعلها لا ترغب في عودته، مع أنها المرة الأولى التي تواجهه فيها امرأة برد فعل مشابه.

كانت الفرصة متاحة أمامه لئلا يعود مرة أخرى، مخلفاً وراءه ذكرى ذلك اللقاء الآسر. لكن التفكير في تلك المعاطف التي يحتاج إليها الأولاد حرك فيه إحساساً غريباً، إحساساً بالتوتر.. كيف يسعه أن ينجز مهمة مماثلة من دون أن تتحرك أحاسيسه الإنسانية؟

ألم يكن السيد ثيودور يعي أن السد في أعماق مايكل إذا ما انهار فسيكون السيل الجارف خطيراً، مدمراً يحطم كل ما يقف في طريقه؟

كلا، لا يمكنه شراء المعاطف... ولكن ماذا عن الأطفال الخمسين الذين يحتاجون إلى سترات تقيهم من البرد؟ أطلق شتيمة خافتة، فخرجت الكلمات وسط هبة من الرياح المحمّلة بالصقيع، ما نبهه إلى مدى برودة الطقس.

وفي تلك اللحظة، أدرك مايكل أنه لم يعد بإمكانه التراجع عن فكرة شراء المعاطف فعاد وأطلق شتيمة أخرى.

عاد يحدق في دليل الهاتف المتلف ومزّق صفحة من الصفحات

القليلة المتبقية التي تضم عناوين متاجر المعاطف فيما الإحساس بالذنب لا يفارقه لحظة واحدة. بعدئذ، مزّق أيضاً الصفحات السابقة التي تضم أرقام المهرجين وعناوينهم.

لم يستطيع مايكل إخفاء دهشته وهو يفكر بالإحساس بالذنب الذي انتابه... إنه إحساس فريد من نوعه والأول الذي يساوره منذ فترة بعيدة جداً.. إلا إذا أخذ ما شعر به أثناء تبادله الحديث مع ماما نويل بعين الاعتبار...

لم يكن إحساساً بالدفء الحقيقي، لكنها ذكرى الإحساس بالدفء... وذكرى الشعور الذي ينتاب المرء عندما يرغب في شيء ما... ما الذي يريده؟ قطب مايكل جبينه.. أراد التواصل معها وتبادل المزاح السطحي والبريء مع إنسان آخر.. تاق إلى جعل خديها يتوهجان خجلاً... فسيكون ذلك ممتعاً.

مضى زمن طويل جداً لم يشعر فيه بذرة اهتمام بأي شيء أو أي شخص... ولم تكد تمر ساعة واحدة على قبوله بتلك المهمة الغامضة حتى أخذت المشاعر تتسلل إلى أعماقه... لكن هل سيكون هذا كافياً لإنقاذه؟؟ أم تراه سيقضي على ما تبقى منه؟

وجد أنه من الأفضل له أن يتحلى بالقليل من الإيمان، لكنه أدرك أنّ هذا المفهوم لم يعد له مكان في عالمه منذ فترة بعيدة، بعيدة جداً.

تمكّن مايكل من العثور على العنوان الذي مزقه من دليل الهاتف؛ ووجد نفسه في عالم مختلف كلياً عن مكتب جمعية بابا نويل السرية، فهو قسم في متجر كبير، فخم مشع بالأضواء البراقة يعرض السلع الفاخرة ويقع عند طرف حي راقٍ. كانت الواجهات تتألق بزينة الميلاد والأضواء تومض ابتهاجاً مقارنة باكفهرار ذلك النهار.

ودخل متجراً يحمل اسم «المعاطف الغربية»، فطالعته شجرة ميلاد مزينة بالكامل باللون الأبيض فيما صدحت من المذياع نسخة محدثة لترانيم الميلاد... كم كان يكره هذه الأمور!

صُعق مايكل عند رؤيته البائعة التي كانت من النوع المحبب إلى قلبه:

شقراء طويلة القامة، رشيقة القوام، تضع أحمر شفاه يتناسب تماماً مع طلاء أظافرها وتعتمر قبعة بابا نويل بشكل أنيق. كانت البطاقة المعلقة على صدرها تشير إلى أن اسمها كاليسو.

لم تكن الموظفة العاملة في جمعية بابا نويل السرية تضع بطاقة تحمل اسمها. وأدرك فجأة أنه لم يسألها عن اسمها مع أنه كان واثقاً من أنها تحمل اسماً جميلاً وعملياً مثل هيلين أو سوزان أو غوين.

قال لكاليسو التي مالت نحوه: «أحتاج إلى خمسين معطفاً بمقاس صغير».

- خمسون معطفاً!

وأطلقت ضحكة خافتة وطرفت بأهدابها المثقلة بالكحل الأسود. صحيح أنه كان تواقاً إلى التواصل مع الآخرين، إلا أنه لم يشأ أن تتعدى علاقته بها المسائل العملية.

ونجح، بعد جهد جهيد، في اختيار خمسين معطفاً. كان بحاجة إلى معاطف عملية تقيهم البرد وتحميهم من الأذى عند التراشق بالثلج.

اشترى معاطف من كافة المقاسات والألوان المتوفرة وأضاف اليها بضعة أكياس للنوم مزودة بأغطية للرأس، أكياس قالت له كاليسو بصوت رقيق ناعم إنها دافئة وناعمة.

وفي اللحظة الأخيرة، اختار متردداً ثلاث سترات زهرية اللون، مزينة بالفراء عند الياقة وأطراف الأكمام. وساوره عندما حملها بين يديه، الإحساس نفسه الذي غمره عندما وقعت تلك الدمى بين يديه فلم يتمكن من مقاومة الرغبة في شرائها.

- حسناً.. هذا كل شيء

سألته كاليسو: «لمَ تحتاج إلى هذا العدد من المعاطف؟»

لم يشأ التطرق إلى تفاصيل مهمته خشية أن تحاول التودد إليه أكثر فاكتفى بهز كتفيه بلامبالاة...

- إذا كنت تنوي القيام بعمل خيري، فيمكنك أن تحصل على حسم جيد.

- لا، لا بأس

أدرك وهو يعطيها بطاقة اعتماده أنها المرة الأولى التي يستمتع فيها بإنفاق فلس واحد من تلك النقود، إلى جانب النقود التي دفعها لشراء جهاز التلفزيون الحديث.

أصرت على أن تساعده على حمل المعاطف إلى سيارته رغم محاولاته الحثيثة لإحباط عزيمتها.

وشهقت مصعوقة عند رؤيتها سيارته وقالت: «آه! سيارة جاغوار».

لم يغب عنه أن افتتانها به تضاعف في تلك اللحظة. ففي الماضي البعيد، كان يحرص على استغلال المواقف المشابهة بلا تردد... وما زالت ذكريات النزهات التي قام بها برفقة براين في هذه السيارة، حية في ذهنه... أجابها بفظاظة: «إنها سيارة أخي».

كدّس المعاطف في السيارة حتى بات يتعذر عليه رؤية الزجاج الخلفي؛ كان يعي أن كاليسو بقيت واقفة هناك رغم شدة البرد....

بدا واضحاً أنها تنتظر شيئاً ما فقال لها: «أفترض أنك لا تعرفين أين يمكنني العثور على جني؟».

بصقت العلكة من فمها ووضعت يدها على وركها وقالت له عابثة: «لم أكن أتصور أنك منحرف».

تذكر فجأة امرأة أخرى... امرأة يتوهج خداها خجلاً.. امرأة لا تتحلى بالشجاعة الكافية لتنعت رجلاً بالمنحرف، سواء أكانت تعرفه منذ خمسين سنة أو منذ ساعة واحدة فقط... امرأة لا تميز بين سيارة جاغوار وسيارة هوندا...

شعر باليد التي كانت أظافرها مطلية بلون أحمر تستقر على كم سترته. وأعلنت كاليسو بصوتها المثير وعينيها المغريتين: «يمكننا تناول العشاء معاً إن رغبت في ذلك».

كانت تنتمي إلى تلك الفئة من النسوة اللواتي لطالما أثرنّ إعجابه... فهي تجيد الاستمتاع بوقتها وتتقن قواعد اللعبة خير إتقان..

وعاد يفكر مجدداً بامرأة أخرى.. امرأة لا تسمح لنفسها بأن تعلن

عن استعدادها للخروج لتناول العشاء حتى وإن لم تكن قد ذاقت طعم الزاد منذ أربعة أيام. ووجد نفسه يتساءل عما إذا كانت كذلك فعلاً.

لا بد أنها ستطلعه على اسمها عند رؤية الخمسين سترة... كم كان يتوق لرؤية تعابير وجهها عندما ستقع عيناها على السترات الزهرية ذات الياقات المضحكة.

- أشكرك على مساعدتك... إنما علي أن أعتذر منك لأنني مرتبط هذا المساء.

سألته وهي تمرر إصبعها المغري على كل تفصيل في غطاء السيارة ذي اللون الأسود الأنيق: «ماذا عن أخيك؟».

أبى أن يخبرها أن أخاه مات خشية أن يثير عطفها، فأرغم نفسه على رسم ابتسامة على ثغره، واكتفى بالقول: «إنه مرتبط أيضاً».

تقبّلت كاليبسو الأمر برحابة صدر، فامرأة مثلها تعتبر الرجال كالحافلات، فإذا ما فاتتها واحدة استقلّت التالية.

غمزته عابثة وعادت أدراجها متبخترة في فستانها الذي كان يحدث حفيفاً ناعماً مع كل خطوة تخطوها...

أدار مايكل محرك سيارته وانطلق عائداً إلى المدينة. كان ازدحام السير قد بلغ أوجه في تلك الساعة من النهار وساهم الثلج المتساقط بكثافة في تفاقم الوضع.

وأخيراً، بدأت السيارات بالتحرك إنما ببطء شديد، عبر الطرقات الزلقة نتيجة ذوبان الثلج... مد مايكل يده نحو جهاز التدفئة وشغّله ثم عاد وأبعد يده وجلس يتأمل في ما فعله للتو... لمَ أشعل جهاز التدفئة؟ كانت آثار الصقيع تزول شيئاً فشيئاً عن الزجاج الأمامي.

وما إن استجمع أفكاره حتى أدرك حقيقة ما جرى إذ شعر بقشعريرة تسري على طول عامود الفقري. إنه الدليل القاطع على أن الأحاسيس عادت تدب فيه... كان يشعر بالبرد. بشيء من البرد.. فتنبه إلى الإشارات التحذيرية التي راح يتلقاها طوال فترة بعد الظهر... إشارات تدل على أن شيئاً ما يتحرك في داخله، بدءاً من الإحساس بالذنب عند

تمزيقه أوراق دليل الهاتف، مروراً بالرغبة في التواصل معها والاستمتاع بإنفاق المال وصولاً إلى هذا...

واختفت القشعريرة فأطفأ جهاز التدفئة عن عمد. لم يكن مستعداً بعد لمواجهة أي إحساس.. ولم يكن مستعداً أبداً لدعوة امرأة لا يعرفها ولا يعرف حتى اسمها لتناول العشاء معه... يمكنه أن يرسل المعاطف في الغد عبر البريد. ويمكنه أن يؤمن لها جنياً من دون الحاجة إلى مقابلتها من جديد والغوص أكثر فأكثر في هذا العالم الخطير الذي يحرك مشاعره...

وفجأة، ضغط على الفرامل فانزلقت السيارة بقوة ودارت على نفسها.. تعالت خلفه الأبواق الساخطة لكنه لم يأبه للأمر... كان عليه أن يبتعد عن جمعية بابا نويل السرية بأسرع ما يمكن!

كانت المعاطف المكدسة في السيارة تحجب الرؤية من الزجاج الخلفي، فسمع صوت صفارة الإنذار قبل أن يرى الأضواء... نظر مايكل في المرآة الجانبية وأطلق تنهيدة عميقة.. كانت الأضواء الحمراء والزرقاء تومض خلفه، فركن سيارته بجانب الطريق فيما حذت سيارة الشرطة حذوه.

بدا الشرطي بعيداً كل البعد عن روح عيد الميلاد.

- قمت بالانعطاف بصورة مخالفة للقانون.. والسبب في ذلك هو أن الرؤية محجوبة كلياً.

وأخرج الدفتر الخاص بمخالفات السير ثم حدق عن كثب بحمولة السيارة وسأله: «ما هذا؟ هل سرقت متجراً؟»

كان من السهل عليه أن يومئ بالإيجاب ليرى ما قد يحصل...

- هل تحمل فاتورة بهذه المشتريات؟

ناوله مايكل الفاتورة.

- حسناً.. اشتريت خمسين معطفاً.. فما الغاية من ذلك؟

أراد مايكل أن يجيبه أنّ الأمر لا يعنيه لكنه أدرك أن مزاج الشرطي لا يسمح له بتقبّل رد مماثل.

قال على مضض وقد شعر بالانزعاج لظهوره في مظهر فاعل الخير: «اشتريت هذه المعاطف من أجل جمعية بابا نويل السرية».

أغلق الشرطي دفتر مخالفات السير على عجل وأعاده إلى جيب قميصه.

- وهل كنت ذاهباً لتسليمها؟

لم يشأ أن يقول له إنه كان ذاهباً لتسليمها ثم عاد وغيّر رأيه لئلا يثير ارتباكه، واكتفى بإيماءة من رأسه.

نظر الشرطي إلى الطريق المزدحم بالسيارات وقال: «هذه حال واشنطن في هذه الساعة من النهار... هل كنت تنوي أن تسلك طريق ويلمور؟».

ارتأى مايكل أن يكون صريحاً معه فأجابه: «في الواقع، قررت العودة إلى المنزل وتأجيل تسليم المعاطف إلى وقت لاحق».

قطب آدامز جبينه وهو ينظر إلى زحمة السير الخانقة، غير أن أساريره ما لبثت أن انفرجت وصرخ قائلاً: «علينا أن نسلم المعاطف إلى جمعية بابا نويل السرية بسرعة.. اتبعني».

وتغيرت تعابير وجهه ولغة جسده وقد غمرته الحماسة لمشاركته في هذا العمل الخيري.

ويّخ مايكل نفسه في سره بعد أن وجد نفسه متوجهاً، بمواكبة سيارة الشرطة، إلى المكان الذي قرر منذ لحظات قليلة ألا يطأه ثانية... تملكه التوتر وهو يتساءل إلى أي مدى سيتمكن من الآن فصاعداً من التحكم في أمور حياته....

كان الحي معتاداً على سماع دوي صفارات سيارة الشرطة، دوي أصبحت كريستين قادرة على تجاهله تماماً كالموسيقى التي تصدح في المصعد. توافد المتطوعون بأعداد هائلة طوال فترة بعد الظهر، لكنهم غادروا جميعاً قبل موعد العشاء وتركوها وحدها.

حملت كريستين الكتيّب والسعادة بادية على وجهها، وراحت تتأمله عن كثب؛ كانت القطعة التي تحمل اسم «حب في منزل صغير في

البراري» جميلة أيضاً لكنها لا تضاهي قطعة «فارس في درع لامع»..

ازداد دوي الصفارات حدة وكأنها تدعوها لأن تعيرها اهتمامها، وأضاء اللونان الأحمر والأزرق مكتبها فجأة... فوضعت الكتيّب جانباً وقد تملكها الفضول، وتوجهت نحو النافذة الأمامية ورفعت طرف الورق اللاصق الذي تستخدمه لئلا يختلس الأولاد الفضوليون النظر إلى ما يخبئه بابا نويل لهم في كل سنة.

توقفت سيارة فخمة، سوداء اللون أمام مكتبها فظنت للوهلة الأولى أنها من نوع هوندا... وبفضل الخبرة التي اكتسبتها من خلال عملها في هذا الحي، أدركت على الفور أن تلك السيارة تختلف كلياً عن السيارات السريعة المفضلة لدى مروجي المخدرات...

توقف دوي صفارة الإنذار.. وترجل الشرطي من سيارته فحذا سائق السيارة الأخرى حذوه.. إنه هو... لِمَ عاد إلى هنا؟

تمنّت كريستن في سرها أن يفرض الشرطي عليه غرامة مالية لمخالفته القانون، رافضة التساهل معه لأنه وسيم، وشديد الثقة بنفسه ويقود سيارة مماثلة... سيارة تسلط الضوء على أناقته، ورجولته النابضة وتؤكد لها كم هو صعب المنال بالنسبة إلى فتاة مثلها.

وسمعت صوتاً في داخلها يقول لها بنبرة قاسية: عليك أن تجيدي اللعب لتتمكني من نيل مطلبك.

وهذا ما لا تجيده أبداً.. حسناً... عليها الاعتراف بأنها تمر بين الحين والآخر بلحظات من الضعف، كما حصل بعد ظهر اليوم.. إنها الطبيعة البشرية.. ولكن كريستن مدربة خير تدريب على ضبط النفس، فالحب سريع العطب، وسهل الكسر وغير جدير بالثقة.

لكنها وجدت نفسها تتأمله مفتونة وهو يتوجه نحو الشرطي بثقة فائقة في النفس... صحيح أنّ الشرطة لم تجبرها يوماً على ركن سيارتها إلى جانب الطريق، إلا أنها تعي تماماً أنه يفترض بالسائق أن يلازم سيارته.. ويتم التشدد في تطبيق هذه القاعدة في هذا الحي حيث يُشهر السلاح في وجه المرء وتوجه إليه الشتائم من كل حدب وصوب!

غير أنها لم ترَ أحداً يشهر السلاح في وجهه أو يوجه إليه الشتائم.. كلا... بدا على وفاق تام مع الشرطي. أطلقت كريستين تنهيدة طويلة وقد أدركت أنه من النوع الذي يتمتع بالثقة في النفس.. ثقة تجلّت من خلال سهولة تعامله مع الشرطي من دون خوف أو ارتباك..

بدا الشرطي وكأنه يحرر مخالفة سير، فأخذها الرجل منه من دون أن ينظر إليها ووضعها في جيب سترته الجلدية... لم يكن يشعر بالبرد مع أن الليل أرخى سدوله وأخذت الحرارة في الانخفاض. في المقابل، كان الشرطي يتنقل من رجل إلى أخرى وقد أحنى كتفيه من شدة البرد.

علا صوت جهاز اللاسلكي في سيارة الشرطي فهرع هذا اليها.. ولم تكد تمضي دقائق قليلة حتى دوت صفارة الإنذار من جديد وانطلق الشرطي بسيارته مسرعاً.

اتكأ الرجل على باب سيارته حاملاً بين يديه.. المعاطف... وعندما رأته يسير مترنحاً نحو باب مكتبها، هرعت إلى الخارج وأمسكت بإحدى السترات قبل أن تقع أرضاً... كان السترة زهرية اللون ومزينة بالفراء، سترة لا يعقل أن يختارها رجل مثله...

سبقته إلى الداخل لتبعد الأغراض المتراكمة على الطاولة... ثم قالت له لاهثة: «ضعها هنا».

وقفت تحدق فيه مذهولة وهو يضع المعاطف البالغ عددها عشرين تقريباً، على الطاولة... لم يشترِ سلعاً قديمة مستعملة بل اختار معاطف جديدة من متجر فخم، ومن كافة الأشكال والألوان والمقاسات... كانت بطاقات الأسعار لا تزال معلقة بها...

- سأجلب ما تبقى.

- ما تبقى؟

- قلت إنك بحاجة إلى خمسين معطفاً

شعرت بغصة الانفعال تسد حلقها وتكاد تخنقها...

أثناء خروجه إلى السيارة وعودته حاملاً كومة أخرى من المعاطف، استعادت كريستن رباطة جأشها وكأنها معتادة دوماً على استلام معاطف

جديدة على سبيل الهبة.

لسوء الحظ، كانت سترة زهرية أخرى، مزينة عند الكمين والياقة بالفراء، تعلو كومة المعاطف.

قالت له أخيراً وقد شبكت ذراعيها في محاولة منها لمواجهة المشاعر التي تعتمل في داخلها: «حسناً.. من أنت؟»

مد يده مصافحاً وأجابها: «مايكل برويستر».

مدت كريستن يدها لتصافحه بدورها، فأحست بقشعريرة تسري في أوصالها... ونجحت في أن تتمتم: «كريستن موريسون».

ردد اسمها ببطء... ما هي تلك النبرة التي سمعتها في صوته؟ أهي نبرة المفاجأة؟

هذا غير عادل... كيف يعقل أن يكون وسيماً، وشديد الثقة بنفسه وطيب القلب في آن معاً؟ كريستن فتاة واقعية وتدرك معنى الحياة.. وحقيقة الرجال... فجميعهم خونة مثل جايمس، وزوج أختها الذي أوحى للجميع بأنه رجل كريم الأخلاق ولا يعقل أن يتورط أبداً في علاقة مع سكرتيرته...

عندما نظرت في عيني مايكل، شكرت الله لأنها لم تكن واثقة ما إذا قرأت فيهما شيئاً من الطيبة.. كانت واثقة من أنها أخطأت التقدير؟ أهو الحزن؟ كلا، إنه أمر أكثر خطورة.. شيء مس روحه وحطمها...

سألته بفظاظة محاولة أن تفكر في أي موضوع آخر غير روحه: «لمَ حرر لك الشرطي مخالفة؟»

أجابها حائراً: «مخالفة؟ لم تكن مخالفة..».

ومد يده إلى جيبه مضيفاً: «أصر الشرطي آدامز على أن يحرر لي شيكاً بثمن السترة الزهرية أو أي سترة أخرى... فطلبت منه أن يحرره باسم الجمعية».

حدقت كريستن فيه ومدت يدها لتأخذ الشيك منه مصعوقة...

- تجدين رقم هاتف على ظهر الشيك. أظن أنه يعود إلى أحد الاتحادات... أكد لي الشرطي أنهم سيقدمون لك التبرعات إن اتصلت

بهم.

ألا يكفيها ما سببته لها وسامته من عذاب؟ لمَ اختار أن يكون صانع معجزات أيضاً؟ كان قادراً على تأمين السترات والشيكات بلمح البصر... وماذا لو نجح في العثور على جني؟

لم يكن الرجل الواقف أمامها أميراً مهما بلغ عدد المعاطف التي يمكن أن يؤمنها... فالحياة ليست قصة خيالية وعبارة «وعاشا بثبات ونبات» لا تنطبق على الواقع. لقد فشل زواج والديها ولقي زواج بيكي وكينت المصير نفسه...

سألته وهي تعي أنها تبدو ناكرة للجميل: «لمَ تفعل هذا؟»

- طلبت مني خمسين معطفاً وجنياً.. لكنني لم أتمكن من العثور على الجني بعد..

- هل قدموا لك المعاطف مجاناً؟

- مجاناً؟ كلا..

بقيت مصرة على معرفة السبب، فقالت له: «لم تفصح عن الدافع الحقيقي بعد... ما الذي جعلك تشتري هذا الكم من المعاطف لامرأة غريبة عنك؟»

قال لها بنبرة وضعتها عند حدها: «حسناً.. لم أشترها من أجلك... اشتريتها من أجل الأولاد الذين يحتاجون إليها».

بدا واضحاً أنه لا ينوي البوح بالدافع الذي ترغب في سماعه، الدافع الحقيقي وراء هذه الموجة من الكرم..

ألقت نظرة سريعة على الطاولة ومدت يدها مشيرة إلى السترة الشبيهة بسترات الأميرات قائلة: «أتعني أنك اخترت هذه السترات الثلاث بنفسك؟»

أحنى الرجل رأسه وأجابها: «استنفدت مخزون المتجر كله ولم يتبقَ سوى هذه السترات الثلاث لإكمال العدد المطلوب».

كيف يسعها التأكد ما إذا كان يكذب أم لا؟ فمعرفتها به تكاد لا تتجاوز بضع ساعات... لم ينعم الله على كريستين بموهبة خاصة

تخولها كشف كذب الرجال. أليس صحيحاً أنها لم تفقد ثقتها بزوج أختها حتى بعد مرور فترة طويلة على انفصال أختها عنه؟ أليس صحيحاً أنها لا تزال تأمل أن يعود إلى رشده ويبحث عن أختها ويطلب منها المغفرة؟ أليس صحيحاً أنها كانت ترجو أن يدرك والداها أن انفصالهما غلطة وأن يجتمع شملهما من جديد؟

طردت الفكرة من رأسها بشراسة مدركة مدى ضعفها أمام تخيلاتها الجامحة. كان الرجل الواقف أمامها قادراً على إثارة هذه المشاعر في قلب المرأة، مشاعر التوق إلى التقاليد، والاستقرار والرغبة في العيش في كنف رجل لا يعرف معنى الكذب...

ومع ذلك، كانت تعي أن الحجة التي تذرّع بها ليست صحيحة... كيف يسعه أن يختلق كذبة متقنة إلى هذا الحد؟ وكيف تستطيع أن تقاوم موجة الحنان التي تهدد بأن تغمرها وهي تتخيل هذا الرجل الطويل القامة، النابض بالرجولة والثقة بالنفس وهو يشتري تلك المعاطف الجميلة لثلاث فتيات صغيرات لم يسبق له أن التقى بهنّ؟

أشاحت بنظرها بعيداً لئلا تفضحها الدموع التي اغرورقت بها عيناها..

قالت له هامسة: «معاطف جديدة... أتدرك متى كانت آخر مرة حصل فيها هؤلاء الأولاد على معاطف جديدة؟»

ولفت انتباهها ثمن إحدى السترات المدون على البطاقة المعلقة بها، فأدركت أنها تستطيع أن تضيف ميزة «الثراء» إلى لائحة مزاياه العديدة.. لكن عندما نظرت إليه، خيل إليها أن النقود لا توفّر له السعادة إذ بدا واضحاً أن لا شيء يمكن أن يوفّر له السعادة بعد اليوم... إنه رجل كذاب لا يعرف معنى الفرح.... كيف يمكن لهذا أن يكون جذاباً إلى هذا الحد؟

- لا أدري ماذا أقول.

- ما رأيك لو توافقين على الخروج معي لتناول العشاء؟

رمقته بنظرة سريعة قبل أن تشيح بنظرها بعيداً... بدا واضحاً أن

الدعوة فاجأته بقدر ما فاجأتها.. كانت تعي أنه ليس بمقدورها الموافقة على دعوته على العشاء لأنه من النوع الذي يمكن الوقوع في غرامه بسهولة...

وبّخت نفسها بغضب لأنها تعلم تماماً أن النهايات السعيدة مجرد وهم... ومع ذلك، وجدت صعوبة كبرى في رفض دعوته على العشاء...

قالت له وقد شعرت بأن كل حرف من حروف كلماتها أشبه بسكين يمزق قلبها: «لا أستطيع.. آسفة.. هذا غير ممكن..».

وأشارت إلى علب الألعاب المكدسة مضيفة: «عليّ أن أجمع الدراجات».

هذا الصباح بالذات، أدرجت هذه المهمة على رأس لائحة أولوياتها! كيف يمكن لرجل مثله أن يغيّر مجرى الأمور؟

تذكرت في تلك اللحظة الكتيّب الذي تركته على مكتبها... ولم يغب عنها أن توقها السابق إلى العودة إلى هاربيت وسميدلي تلاشى فجأة... ونظرت إليه بطرف عينها من جديد، فلاحظت أن كلامها أثار ذهوله... لم يكن، على ما يبدو، معتاداً على أن تصده النساء، ما جعلها تشعر بشيء من السرور لأنها تمكنت من رفض عرضه...

- كلا.. لا أستطيع... فبابا نويل لا يواعد أحداً إلا بعد مرور عيد الميلاد..

تباً.. هل أرادت أن تترك المجال مفتوحاً ليدعوها إلى العشاء مرة أخرى؟.

أجابها بنبرة جافة: «لست واثقاً ما إذا كانت دعوتي على العشاء تعد موعداً».

وتلاشت الفرحة التي غمرتها عندما أدركت أنها فاجأته... من المؤكد أنه لا يعتبر خروجهما معاً موعداً غرامياً، ومن يراه يدرك أنه لم يكن بحاجة إلى شراء خمسين معطفاً ليحظى بموعد معها... من يراه يدرك أنه لا يواعد فتاة مثلها بل يواعد فتيات يعلقنّ أقراطاً صغيرة مرصعة

بالماس في أنوفهنّ... فتيات لا يخجلنّ من ارتداء سراويل الجينز الممزقة... فتيات فاتنات، واثقات من أنفسهنّ ولا يحمرنّ خجلاً...

وعلى الرغم من إدراكها أنه ليس معتاداً على مواعدة أمثالها، أطلقت كريستن العنان لمخيلتها... ماذا لو قبلت دعوته على العشاء؟ ماذا لو نجحت، على ضوء الشموع، في مفاجأته وإضحاكه وجعله يرى ما تتحلى به من غنى داخلي يضفي عليها سحراً خاصاً، بغض النظر عن الفستان البني والسترة البالية؟ ماذا لو تمكن من رؤية الأميرة المختبئة خلف فستان سندريلا؟

ماذا لو..

أفكار مجنونة أعادت إلى ذاكرتها صورتها يوم كانت فتاة بريئة ساذجة في التاسعة عشر من عمرها؛ وإذا بفشل زواج أختها يوقظها من أحلامها الوردية ليثبت لها بالدليل القاطع صحة الدرس الذي تعلمته من والديها وجايمس، درس اختارت أن تتجاهله... فالأمر الوحيد الذي لطالما تاقت إليه، يمكن أن يتحول إلى سيف غادر يمزق قلب الإنسان... إنه الحب...

قالت له بفظاظة: «حسناً.. أشكرك على هذا التصرف النبيل.. لست واثقة مما دفعك إلى القيام بذلك لكنني ممتنة لك كل الامتنان.. والآن، أرجو أن تعذرني لأن ثمة الكثير من الأعمال بانتظاري... الوداع سيد بروستير».

نظر إليها وكأنه لم يسمع ما قالته ثم توجه نحوها وأخذ إحدى العلب الموضوعة في أعلى الكومة وسألها وهو يتأمل الرسم عند جانب العلبة: «أتريدين إقناعي بأنك قادرة على جمعها وحدك؟».

أجفلت كريستن لدى سماعها كلماته... في الواقع، هذه هي المرة الأولى التي تقوم فيها بجمع الدراجات، مع أنها قامت بجمع العديد من الألعاب الأخرى في حياتها.

أجابته بنبرة مازحة: «يمكنني أن أقرأ التعليمات».

فتح العلبة بعنف وقلّب محتواها ثم ناولها الورقة التي تتضمن

www.elromancia.com

التعليمات. . . كانت عبارة عن صفحتين من الرسوم غير المفهومة والتي تم شرحها باللغة اليابانية. . . ارتعشت شفتاها، فزمتهما قبل أن تعود وتنفجر ضاحكة. . . .

رفعت عينيها نحوه ورأت طيف ابتسامة عند طرف ثغره. .

- ما رأيك لو نطلب البيتزا ونتعاون معاً على جمع الدراجات؟

- سيد بروستير؟

- مايكل. . .

- لكنني بالكاد أعرفك.

راح الرجل يفكر للحظة قبل أن يفاجئها بسؤاله: «هل أنت خائفة مني؟».

لم تكن خائفة فحسب، بل مرعوبة. . . .

- أتريدين مني أن أملأ استمارة؟ يمكنني العودة في الغد ريثما يتسنى لك التحقق من سوابقي.

كانت مرعوبة من مسألة عودته ثانية. . . فقالت له بنبرة متصنعة: «لا تكن سخيفاً».

وكانت تقصد بكلامها مسألة عودته ثانية في الغد. . .

- الأمر ليس سخيفاً. . عليك أن تتحققي من الأشخاص الذين يأتون للعمل هنا حتى المتطوعين منهم.

- أهتم بهذه الأمور منذ فترة طويلة من دون مساعدة أحد. . . شكراً على اهتمامك. . .

- لا داعي للغضب. . . كنت أفكر في مصلحتك.

تلك هي نقطة ضعفها الأساسية؛ فمنذ نعومة أظافرها وهي تحلم بالرجل الذي سيرعى شؤونها تماماً كما كان والدها يرعى شؤون والدتها. . . وعلى الرغم من طلاق والديها، بقيت متمسكة بأحلامها التي تصدعت بعض الشيء. . نجحت بيكي في العثور على رجل مميز وأنجبت منه طفلاً هو ثمرة حبهما الذي راح يكبر يوماً بعد يوم ويزداد قوة. . حب تزعزع بين ليلة وضحاها. . . وانهار عالم بكامله. . .

قال لها برقة: «اسمعي. . جلّ ما أعرضه عليك هو أن أساعدك في جمع الدراجات وليس التوقيع على معاهدة سلام. . لا داعي للقلق. . أتريدين مرجعاً تثقين به؟ يمكنك الاتصال بجاري السيد ثيودور. . فهو من قال لي إنك بحاجة إلى المساعدة». .

- السيد ثيودور جارك؟ أهو من أرسلك إلى هنا؟

- اقترح عليّ أن أزور المكان. . . كيف تعرفت إليه؟

- كنا ننتمي إلى النادي الأدبي نفسه.

- نادي أدبي. . . يا للهول! كان علي أن أتنبه إلى هذا الأمر.

- وهل من سوء في ارتياد الفتاة للنوادي الأدبية؟

ابتسم ابتسامة عريضة وأجابها قائلاً: «أجل. . . فهي لن ترقص على الطاولة عند ساعة الإقفال حاملة وردة بين أسنانها. . ».

كان يفترض بها أن تشعر بالإهانة إلا أنها انتظرت تلك اللحظة بفارغ الصبر من دون أن تعي ذلك. . . إذ أضاءت تلك الابتسامة عينيه فرأت للحظة ألسنة نار متأججة خلف جبال الجليد. . ألسنة عملاقة، متوهجة تبعث الدفء في النفس. . .

نسيت كريستن الاهانة التي وجهها لها؛ وبدا وجهه الخالي من أي أثر للتجهم طفولياً نابضاً بنضارة الشباب، يعطي فكرة عما كان عليه في الماضي، مليئاً بالإثارة والضحك والسحر الهادئ.

- حسناً. . لمَ أرسلك السيد ثيودور لمقابلتي؟

انطفأت الشعلة في عينيه وزال سحر اللحظة بلمح البصر. وضع يديه في جيبي سرواله وهز كتفيه بلامبالاة وقال: «لأنني متفرغ في الوقت الحالي».

تباً. . كيف يمكن لرجل شاب وثري مثله أن يكرس وقته لجمعية مثل تلك التي تعمل فيها؟ لمَ لا يعمل؟ ألا يفترض به أن يكون منهمكاً في شؤونه العائلية في هذا الوقت من السنة؟

حذرها حدسها من سؤاله أو الإلحاح عليه. . .

www.elromancia.com

- هل تحب البيتزا مع الأنشوفة؟

كانت تعي تماماً أنها طريقة رقيقة للإعلان عن استسلامها...

- ألم يشك أعضاء النادي الأدبي في وجود فتاة تحب الأنشوفة في وسطهم؟

أجابته بنبرة جافة: «يبدو الأمر غريباً، أليس كذلك؟ خاصة مع الرقص على الطاولة عند الإقفال».

كان الوقت قد تأخر وبدأت كريستن تشعر بالإرهاق، فلم يعد بمقدورها مقاومة الاحمرار خجلاً فتوهج خداها وهي تتخيل نفسها ترقص على الطاولة في أي وقت من النهار...

أدركت أن احمرار خديها جعله ينفجر بالضحك وتمنت لو أن السيد ثيودور أرسل مايكل برويستر إلى عنوان آخر، فيما أقرت في سرها، وإن على مضض، بأنها مسرورة جداً لأنه لم يفعل.

أعطتها تلك الضحكة لمحة طفيفة عما كان عليه مايكل في الماضي وجعلتها تعي إلى أي مدى قد تغير...

- أجل، أحب البيتزا بالأنشوفة...

نظر في عينيها لبعض الوقت وكأنه يتحداها أن تكشف النقاب عن الأسرار الدفينة فيهما، ثم أفرغ محتويات علبة الدراجات الثلاثية على الأرض وراح يتلمس طريقه بين آلاف القطع الصغيرة...

كانت كريستن واثقة تمام الثقة من أنه ما كان ليرمق التعليمات بسوى نظرة عابرة، حتى وإن جاءت بلغته الأم..

٣ - ما الذي اختلف؟

حدق مايكل في الدراجة الزهرية اللون وقد غمره إحساس بالارتياح العميق. علق الشرائط البلاستيكية ذات اللونين الأبيض والفضي على جهتي المقود واضعاً بذلك اللمسة الأخيرة على عملية التركيب قبل أن يخطو خطوة إلى الوراء ويصرخ قائلاً:

- ملك الدراجات.

كانت تلك الدراجة الثانية التي يعمل على تركيبها ولن يتطلب تركيب الدراجات المتبقية الكثير من الجهد.

- البيتزا.

دخلت كريستين الغرفة الرئيسية حاملة معها علبة مسطحة تفوح منها رائحة شهية.

- آسفة على التأخير. قال الشاب الذي قام بتسليمها إن الطرقات زلقة للغاية. كم تبدو ظريفة!

عندما رفع نظره إليها، وجدها تحدق في الدراجة وفي عينيها نظرة عززت ثقته بنفسه وإحساسه بعظمته، فشعر بأنه قادر على تركيب مكوك فضائي.

إنها تتحلى بقدرة غريبة على حث أي رجل على تخطي أصعب الاختبارات لمجرد أن يرى نظرة الإعجاب هذه على محياها.

وجد مايكل في الجوع الشديد والرائحة الذكية التي تفوح من البيتزا قوتين مجتمعتين تجعلانه عرضة للتأثر أكثر مما يرغب.. فقد نجح حتى الآن في العيش في عالم لا يحتاج فيه لتقدير أي شخص وهو ينوي أن يُبقي الحال على ما هو عليه.

- إنها تذكرني بالدراجة التي يستعملها القرد في السيرك.

وشبك ذراعيه فوق صدره وكأنه يريدها أن ترى فيه الرجل القوي وليس ملك الدراجات.

- ألا تجد أن الربط ما بين الأمور مضحك بعض الشيء؟ القرود والدراجات الثلاثية. إنها صورة ظريفة.

ليس هذا ما قصده! أتراها أساءت فهمه عن عمد؟؟ نظر إليها وهي تحمل علبة البيتزا بيد وتدفع بيدها الأخرى السترات الجديدة نحو الطرف الآخر من الطاولة. وبينما كانت تضع علبة البيتزا على الجهة الفارغة من الطاولة، قطب مايكل جبينه استغراباً.

ما الذي اختلف؟ لم يعد يراها رزينة بقدر ما كان يراها من قبل. فقد رمت تلك السترة الأنيقة في مكان ما، مع أن الحرارة في هذا البناء القديم المعرّض للرياح العاتية لم تشهد أي تغيير.

كانت دقة ملاحظته في ذروتها في تلك اللحظة إذ وجد صعوبة في منع نفسه من تأمل قامتها، خاصة بعد أن خلعت عنها تلك السترة السميكة. كانت مفاتنها بارزة جداً بالنسبة إلى امرأة رقيقة البنية مثلها.

وتنبه فجأة إلى أمر آخر. كانت تضع أحمر شفاه شفافاً ذا بريق لامع، بعيد كل البعد عن الأحمر الفاقع الجريء..

لم يكن بمقدور الرجل أن يفكر وهو ينظر إلى هاتين الشفتين إلا في أمر واحد فقط.. لقد حذره حدسه بألا يعود إلى هذا المكان وألا يراها ثانية..

لكن ما الذي حثه على دعوتها على العشاء وجعله يشعر بالانزعاج الشديد والإحباط عندما رفضت الخروج معه؟

كان الأمر في غاية البساطة، فقد وجد في تلك الدراجات الهوائية خياراً أفضل من تمضية الأمسية وحيداً أمام شاشة التلفزيون...

قالت له وهي تضع كرسيين أمام الطاولة: «خذ استراحة».

تردد قليلاً في الانضمام إليها، ..ما الذي دفعها إلى وضع أحمر شفاه؟

إنه الدافع نفسه الذي يحث أي امرأة على وضعه..لم يرق له هذا

الاستنتاج إذ وضعته لتلفت نظر الرجل إلى شفتيها..

فهذه الفتاة التي ترتاد النوادي الأدبية تملك شفتين تثيران الدهشة بقدر قامتها..شفتان ممتلئتان ومثيرتان ... أخذت قضمة من البيتزا وعلى وجهها إمارات البراءة وكأنها لا تدرك أبداً أنها نجحت في لفت انتباهه إليها...أغمضت عينيها اللتين عكستا ما فاق بالنسبة إليه لذة الاستمتاع بقطعة صغيرة من البيتزا..

قضم قضمة من قطعته ووجد طعمها تماماً كما توقع. كان مذاقها أشبه بمذاق الكرتون ولا يستحق أبداً الأنين الخافت الصادر عنها..

كان اسمها كافياً لجعله يتوقع مفاجأة أو اثنتين...لم يكن اسمها قديم الطراز أو يوحي بالجدية.. بل كان اسماً مميزاً بدا مألوفاً في ذهنه وكأنه يعرفها تمام المعرفة... كان يعي أن الاسم يتحلى بنفحة شعرية وكره نفسه بشدة لمجرد تفكيره في الأمر... إذ لم يضيع لحظة واحدة في التفكير في معنى اسم كاليسو رغم أنه أكثر غرابة...

لعله من الأفضل أن يفكر في اسمها بدلاً من شفتيها ..دفعته هذه الفكرة إلى النظر من جديد إلى شفتيها وهي تقول فرحة: «أظن أنها أفضل بيتزا في تريمونت».

هل كان كلامها صحيحاً؟ قضم قضمة أخرى من البيتزا آملاً أن يتمكن من مقاومة ذلك الضعف الغريب الذي سيطر عليه...كان كلامها صحيحاً.... ففي لحظة من الصفاء، أدرك أن البيتزا لذيذة المذاق إلى حد لا يقاوم...حدق بشغف في الدراجات الثلاثية، ثم نظر بطرف عينه إلى ثغرها قبل أن يضع علبة البيتزا جانباً بكل ما أوتي من قوة... لم يكن ثغر تلك المرأة يوحي إلا بالإغراء... ثغر حرك في داخله جوعاً شديداً لا يمكن لقطعة البيتزا أن تسده... ثغر جعله يعي مدى إحساسه بالوحدة والفراغ وأثار فيه توقاً لا يقاوم.

وتنبّه في تلك اللحظة إلى أمر في غاية الأهمية: لقد انطوى على نفسه وانعزل عن الناس لفترة طويلة جداً ما جعل فتاة مثلها تنجح في دفعه إلى التفكير في أمور مماثلة.. إنها أفكار لا تخطر إلا في بال رجل بات

غريب الأطوار من شدة بؤسه. وكأن رحلة عذابه الطويلة لم تبلغ نهايتها بعد.

حدق مايكل لبعض الوقت في يديها! يستحيل أن تخونه عيناه. فقد رأى طلاءً لامعاً على أظافرها المقلّمة بعناية، مع أنه كان واثقاً تمام الثقة من أن أظافرها لم تكن مطلية من قبل..

لا يعقل أن تخلع المرأة سترتها وتطلي أظافرها وتلون شفتيها فقط لتأكل البيتزا!

- حسناً، أظن أنه من الأفضل أن أعود إلى العمل!

نهض مايكل من مكانه ومسح يديه بسرواله متجاهلاً عن عمد نظرات الحزن في عينيها.

- علي أن أنهي تركيب الدراجات.. لم يتبقَ أمامنا سوى ٤٠ يوماً قبل حلول عيد الميلاد.

لم يكن لديه أدنى فكرة عن عدد الأيام المتبقية قبل حلول عيد الميلاد..

صححت كلامه على الفور: «تسعة وثلاثون يوماً».

- أقل حتى مما كنت أظن.

وخطا خطوة بعيداً عنها... فسألته قائلة: «ألم تعجبك البيتزا؟»

لم تخفِ في بادئ الأمر إعجابها الشديد بمهارته في تركيب الدراجات، وها هي الآن تبدي قلقها عليه لأنه لم يأكل البيتزا. لم يعامله أحد بهذه الطريقة منذ رحيل أمه... ولحسن الحظ أنه لم يدرك قبل هذه الليلة مدى شوقه لأن يظهر أحدهم إعجابه به، ويقلق عليه..

على الرغم من أحمر الشفاه الذي وضعته، كانت هذه الفتاة توحي بالحب العذري الأفلاطوني الذي ينتهي باصطحابها لمقابلة والدته. لكن والدة مايكل لم تعد على قيد الحياة لتتعرف إليها... وانتابه فجأة ألم حاد لاسع: فقد خيّب مايكل ظن أمه في الماضي ولم يصطحب أياً من صديقاته إلى منزل العائلة ليعرفها إليها... شعر بحاجة ملحة للتحرر من هذا الموقف الذي ولد في ذهنه تلك الأفكار المزعجة المتمردة

والموجعة... لكن الأمر سيكون أصعب مما توقع..

كانت كريستين تحدق فيه بعينيها الواسعتين وخشي أن تكون من النوع الذي يأخذ الأمر بصورة شخصية إذا لم تعجبه البيتزا.. فأخذ قطعة ووضعها كلها في فمها وراح يمضغها بصوت عالٍ..

راحت كريستين تراقب تصرفاته البربرية والبؤس بادٍ على وجهها فحاول أن يقنع نفسه بأنه أمر جيد..

قال بعد أن نجح في نهاية الأمر في ابتلاع طعامه: «أحب البيتزا».

لقد نجحت كريستين موريسون الهادئة الطبع في إضعافه من دون أن تبذل أي جهد... في حين أنه في حاجة ماسة إلى الحفاظ على كل ذرة من قوته ليتمكن من اجتياز هذه المرحلة بسلام..

ألا يفترض بالرجل القوي أن يكون بعيداً عن التأثر؟ والرجل البعيد عن التأثر يعيش في عالم ضبابي بحيث لا تثير انتباهه الشفاه المكتنزة، والنظرات القلقة والسترات المرمية جانباً.

قال لها بعد تفكير ملي: «أنا مرتبط.. من الأفضل أن تعرفي هذا عني».

- أرجو المعذرة؟

لم تغب عنه النبرة المخنوقة في صوتها إلا أنه تمالك نفسه وأجابها قائلاً: «خطر لي أنه من الأفضل أن تعلمي».

- مرتبط بماذا؟

- أنت تعلمين...

- كلا.. أخشى أنني لا أفعل سيد برويستر.. ربما بإمكانك أن توضح لي الأمر.

سيد برويستر.. كانت هذه خطوة جيدة إلى الوراء بعيداً عن أحمر الشفاه الموضوع حديثاً... فلم يجد أمامه سوى أن يمضي قدماً.

- حسناً.. عندما دعوتك منذ قليل على العشاء، قلت إنك لا ترغبين في مواعدة أحد.. وأنا مرتبط ولا يمكنني مواعدة امرأة أخرى.

لم يكن بمقدوره أن يتكلم بوضوح أكثر...

- لا يفترض بالرجل المرتبط أن يدعو امرأة أخرى على العشاء. . .ولا تظن أن الأمر يهمني. . .أظنك تذكر جيداً أنني رفضت دعوتك رفضاً قاطعاً.

من الأفضل ألا تدرك أبداً مدى تأثير شفتيها فيه، خاصة إن كانت تنظر إليه على أنه سافل متعجرف، وهو أمر ليس بغريب عنه.

- رفضت دعوتي وسارعت بعدها إلى وضع أحمر الشفاه.

ولاحظ أن الوهج في عينيها بدأ يأخذ منحى خطيراً فوجد أنه من الحكمة ألا يشير إلى أنه لاحظ اختفاء سترتها والطلاء على أظافرها. . .

- أتظن أنني وضعت أحمر الشفاه من أجلك؟

نهضت من مكانها بسرعة فائقة فأوقعت الكرسي الذي كانت تجلس عليه. . .وراحت تارة تكوّر يديها وطوراً تبسطهما، ما ساعده على تأمل طلاء أظافرها الشفاف المائل إلى الزهري ملياً. ولفت انتباهه أيضاً بقعة من صلصة الطماطم على قميصها فأقر في سره أنه المسؤول عنها. .ولعل أكثر ما أثار دهشته هو أنها لم تحمر خجلاً أو تنطوي على ذاتها عندما واجهها بمسألة أحمر الشفاه فقد ظن أنها ستتعامل مع نبذه لها كالفأرة الصغيرة، وإذا به يجد نفسه أمام نمرة، نمرة غاضبة. . .

ولسوء حظه، شعر في تلك اللحظة برغبة جامحة في معانقتها أكثر أي من أي وقت مضى. . .

- لم أسمع في حياتي كلاماً أكثر غطرسة ووقاحة.

خطر له أن الأمر سينتهي به مع بقعة من صلصة الطماطم على قميصه أيضاً. .أتراها مدت يدها بحثاً عن قطعة البيتزا؟ أتراها تتصور أن قطعة البيتزا قد تؤذيه إن رمته بها؟ كلا، لا يمكن أن تكون من النوع الذي يحب أن يلحق الأذى بالآخرين. .

الرجل المرهف الحس الذي يراعي شعور الآخرين، سيعتذر حتماً عن الخطأ الذي ارتكبه حين صور له غروره أنها تبرجت من أجله. . . .

غير أن مايكل استنزف كل ذرة من قدرته في الحفاظ على الذات كما أنه لا يعرف معنى الرقة. . . وأدرك أنه يتوق إلى أن يعرف إلى أي مدى

يمكن أن تفاجئه كريستين، وإن كانت تتحلى بما يلزم من الجرأة لترميه بالبيتزا. .

سألها بنبرة مشككة: «هل وضعت أحمر الشفاه لتأكلي البيتزا؟»

مكثت مكانها لا تحرك ساكناً فأدرك على الفور أنه لم يستفزها كما كان ينوي أن يفعل بل جرح شعورها. لم تمد يدها لتلتقط علبة البيتزا، مع أنه يستحق أن تلقي بالعلبة على رأسه بسبب كلامه الجارح. لكن وعوضاً عن ذلك، تلاشت إمارات الغضب عن وجهها وأخذت شفتاها الخادعتان ترتجفان بينما راحت عيناها تطرفان بقوة. .

ما الذي سيفعله إن انفجرت بالبكاء؟ أراد أن يظهر أمامها بمظهر السافل المتعجرف وليس أن يظهرها في مظهر المرأة ذات العيوب. هذا هو السبب الأساسي الذي يحول دون ارتباط أمثاله من الرجال بامرأة من هذا النوع؛ كانت كريستن حساسة للغاية والاستسلام للرغبة الجامحة في معانقتها سيشكل حتماً كارثة.

- لم أضعه من أجلك.

وأضافت شاهقة: «هذا سخيف. . . فمن ينظر إليّ يدرك في الحال أن رجلاً مثلك لا يُعقل أن يجدني جذابة حتى وإن كسوت شفتيّ بطبقة كثيفة من أحمر الشفاه».

بدأت الأمور تخرج عن المسار الذي رسمها لها. لكن إن قال لها الآن إنه يجدها فاتنة فلن تصدق كلامه وسيُخيّل إليها أنه يحاول أن يخفف عنها. . . فارتأى أن يسلك طريقاً أكثر أماناً قائلاً لها: «لم تكن شفتاك مكسوتين بطبقة كثيفة منه».

انهمرت دمعة من عينيها وشقت طريقها بحزن نحو خدها، فمسحتها بغضب. .

تابع مايكل كلامه قائلاً: «لم تكن طبقة أحمر الشفاه كثيفة بل موزعة بشكل متوازن».

لم تظهر علامات الاطمئنان على وجهها.

- لعل صديقتك تعرض الأزياء للمجلات الخاصة بالرجال أو تظهر

على الأقل في إعلانات الملابس الداخلية.

وعلت الحمرة خديها وانهمرت الدموع غزيرة من عينيها..

- ليس لدي صديقة.

وندم على الفور على ما قاله لأنه وجد في الكذب خير مخرج له من هذه الورطة... صديقة.. كان بإمكانه العودة إلى تركيب الدراجات التي وجد فيها متعة غريبة، بدلاً من تعقيد الأمور والحديث عن احمر شفاه كريستن أو تنهداتها أثناء التهامها البيتزا.

قالت له وهي تبتعد عنه واضعة يدها على قلبها وكأنها تحميه منه: «يبدو أن الأمر لا يتعلق بكونك مرتبطاً أم لا بل يتعلق بما إذا كنت ترغب في الارتباط بفتاة مثلي أم لا».

- كلا.

- فتاة مثيرة للشفقة تهوى ارتياد النوادي الأدبية، وتضع أحمر شفاه لتلفت انتباه شاب يرتدي سترة جلدية ويقود سيارة رياضية، شاب ذو عينين خضراوين ساحرتين.. شاب كريم النفس اشترى خمسين سترة من أجل الأطفال المعوزين.

عيناه ساحرتان؟ أتراها تقصد عينيه؟ لا بد أنها تمزح، لكن الوقت ليس مناسباً للضغط عليها في هذا الشأن.

قال لها بحدة: «لست مثيرة للشفقة يا كريستن.. هل جننت؟»

طأطأت رأسها بحزن وأجابته: «مثيرة للشفقة ومجنونة».

أطلق مايكل شتيمة لا يمكن لأي من أعضاء جمعية بابا نويل السرية أن يتلفظ بها. وعندما تقدّم منها، أدارت له ظهرها وفرت منه.

كان رد فعله نابعاً من غريزته فلحق بها وأمسك بكتفيها وأدارها نحوه.. بدت أمامه أشبه بهرة صغيرة وهي تقاوم للإفلات من قبضته.. ومع ذلك، تمنى له أن يلامس بشرتها الطرية، الناعمة..

أنزل مايكل يديه إلى جانبيه وقال لها بهدوء بنبرة بدت نابعة من القلب: «لا يتعلق الأمر بك يا كريستين بل بي أنا».

سألته والعجرفة البادية في نبرة صوتها لا تخفي خطورة الجرح الذي

سببه لها كلامه الوقح: «لمَ أشعر وكأنها قصة حياتك؟».

بدا واضحاً أنه يفتقر إلى الخبرة على صعيد العلاقات الاجتماعية إذ اكتفى خلال السنوات الماضية بمواصلة التنفس بغية البقاء على قيد الحياة.. كان الوجع الذي ينغص عليه حياته عظيماً بحيث يصل إلى الآخرين ويؤثر فيهم حتى لو لم يشأ ذلك..

إلا أن هذا لا يعطيه الحق في إلحاق الأذى بالآخرين حتى وإن كانوا يشكلون خطراً على الجدران الشاهقة التي أحاط نفسه بها!

كم ستكون خيبة أمل السيد ثيودور عظيمة! أرسله إلى هذا المكان ليقدم المساعدة وإذا به يتسبب بجرح مشاعر شخص لا يستحق ذلك...

- كريستن!

شيء ما في طريقة لفظه لاسمها جعلهما يتسمران في مكانهما... وأدرك تماماً ما سيحصل لاحقاً وتمنى لو يستطيع أن يوقف عجلة الزمن لكنه عاجز عن ذلك. وسمع صوتاً عميقاً يقول: «تعرضت لحادث رهيب. ولهذا السبب لم أعد حراً».

- حادث؟

أمر نفسه بالتزام الصمت.. لم يخبر أحداً عن الحادث.. لا أحد على الإطلاق.. لم يكن قادراً على تحمل نظرات الشفقة والعبارات المبتذلة... لم يكن قادراً على تحمل ذلك...

- انهار عالمي كله... أمي، وأبي وأخي.. ولم يعد لدي ما أقدمه للآخرين إلا الأذية، تماماً كما أذيتك هذا المساء.

اصمت.. اتوسل إليك أن تصمت.. لكن الصوت استمر في الكلام وكأنه كان ينتظر اللحظة المناسبة ليعبّر عن مكنونات قلبه، تماماً كما تنتظر المياه اللحظة المناسبة لتتفجر وتكسر السد..

- إنه أول عيد ميلاد يمر علي من دون أفراد عائلتي ولا أعرف كيف سأتمكن من تحمل هذه الفترة...

وماتت الكلمات في حلقه وخيّم صمت مطبق عليهما..

لزمت كريستن الصمت لفترة طويلة، ومع ذلك لم يجد في صمتها

مصدراً للإزعاج. . . . لم يكن يتأمل الآن شفتيها بل عينيها. . كانت عيناها الرماديتان تنطويان على سحر غريب لا يستطيع الرجل مقاومته. . . وعندما قررت في نهاية المطاف أن تخرج عن صمتها، لم تتفوه بالكلمات التي كان يخشاها ولم تقل له إنها آسفة أو تسأل عما حصل.

قالت له بنبرة قوية تتناقض كلياً مع قوامها الرقيق: «أعرف الوسيلة الأفضل التي ستساعدك على تخطي هذه المرحلة».

أليس من الغباء أن يصدق كلامها؟ ومع ذلك، قرر أن يثق بكلامها ويصدق الهدوء والقوة الكامنين في تينك العينين. .

مسحت شفتيها بكم قميصها وكأنها تحاول أن تمحو حقيقة أنها رغبت في لفت انتباهه فشكلت هذه الحركة اعترافاً واضحاً منها. .

والمضحك في الأمر هو أن ما فعلته لم يغيّر شيئاً البتة. . إذ بدت شفتاها أكثر إغواءً من ذي قبل مع أنها مسحت أحمر الشفاه عنهما. .

جلّ ما تمكن من رؤيته على وجهها هو إمارات الحنان والعطف. . كيف تمكّن من أن يلحق الأذى بامرأة تتولى إدارة جمعية «بابا نويل السرية»؟

وتنبّه فجأة إلى أن بإمكانه أن يقوم بشيء بسيط من أجله، شيء بعيد عن الأذية، ويمكن أن يعوضها عن الجرح الذي سببه لها. يمكنه أن يجعلها تدرك أنها فتاة جميلة وفاتنة وتتحلى بشفتين ساحرتين. . لكن لا جدوى من الكلام الآن. . فهي لن تصدق أي كلمة قد تصدر عنه. .

مال نحوها قليلاً فتراجعت على الفور تماماً كما توقع. إلا أنها ما لبثت أن فاجأته وهي تتقدم نحوه وتقف على رؤوس أصابعها لتلامس خده بحنان. كانت لمسة سريعة جداً أشبه بلفحة أجنحة الفراشة للورد. . . لمسة أكثر حلاوة مما توقّع فتركته في حالة من الذهول. . ومع أن جسديهما لم يتلامسا إلا أنه أحس بنفسه مترنحاً وكأن هزة أرضية زعزعت كيانه كله، فتصدعت الجدران الشاهقة التي بناها حول نفسه.

قالت له بصوت رقيق: «لعلك تملك قدرة على العطاء تفوق تصورك. . وهذه هي أفضل طريقة لتخطي هذه المرحلة».

أراد أن يؤكد لها أن كلامها غير صحيح لكن لمستها البريئة جعلته يحبس أنفاسه.

وعندما بقي صامتاً سألته: «ماذا تسمي الخمسين سترة؟ أليست عطاءً؟»

هز كتفيه وتراجع خطوة إلى الوراء وقد ظهر عليه الانزعاج.

أجابها وقد نجح أخيراً في استعادة قدرته على الكلام: «هذا النوع من العطاء غاية في السهولة».

- لو كان سهلاً فعلاً، لما وجدنا أطفالاً يعانون من العوز. . .

بدا عليها فجأة الارتباك. فنظرت إلى ساعتها وعلت الحمرة خديها من جديد فأصبحا أشبه بمنارة تضيء درب رجل أضاع روحه وسط البحار. . .

قالت له بحدة وكأنها تخشى هذه اللحظة وهذا الإحساس بالحميمية الذي يتشاركانه: «علي أن أنصرف. . وعليك أن تنصرف معي لأنني لا أملك مفتاحاً آخر».

- لن أسمح لك بالذهاب إلى سيارتك بمفردك.

بدت وكأنها على وشك أن تصرخ محتجة لكنها عادت وارتأت ألا تفعل. .

أدارت له ظهرها وجمعت قطع البيتزا المتبقية ووضعتها بعناية في الثلاجة. وما هي إلا دقائق قليلة حتى فتحا الباب الأمامي ليواجها سوياً صقيع المساء. . سألته مويخة: «ألا تملك سترة أكثر دفئاً؟».

كان من البديهي أن تعامله معاملة الفتى اليتيم، وتقلق عليه وتلعب دور الأم الحنون، خاصة بعد أن أفضى إليها بسره. . . وتذكر في تلك اللحظة أنها أبدت قلقها عليه قبل أن يفضي إليها بمكنونات قلبه. . .

- لا أشعر بالبرد. . .

رمته بنظرة حائرة غير أنه ارتأى أن يتجاهلها لأنه لم يكن مستعداً للمزيد من الاعترافات. . . وبينما كانت تقفل الباب، رأى مايكل رجلاً ضخم الجثة يعبر الشارع وكتفاه محنيتان من شدة البرد.

- أظن أنني رأيت هذا الشاب قرب بابك منذ قليل.

- أتقصد هذا الشاب؟ إنه يبقى هنا دوماً. . .لست واثقة من هو هذا الفتى اليافع لكنني أتصور أنه يظن أنه يحميني.

حدق مايكل في الشاب وهو يبتعد عنهما وقد وجد تفسيرها غير منطقي. . . فوجوده لم يكن بدافع الغيرة عليها لكنها بدت واثقة مما تقوله. .

كانت بريئة إلى حد يفوق التصور، غير أن عينيها قالتا كلاماً في غاية الخطورة: صحيح أنها بريئة، غير أن هذا لا يعني أنها بريئة بملء إرادتها. . .

وصلا إلى سيارة مغطاة بالثلج، سيارة صغيرة، عملية واقتصادية، بعيدة كل البعد عن البهرجة، تماماً كما توقع.

لكن من يملك سلاحاً سرياً مثل شفتيها لا يحتاج إلى سيارة مبهرجة. . صعدت إلى السيارة وشغلت المحرك بينما راح مايكل يزيل الثلج عنها بيديه وكمي سترته. . .فترجلت كريستن من السيارة وأعطته فرشاة. . .

- هل ستعود في الغد لتنهي تركيب الدراجات؟

تردد مايكل قليلاً. . .

- ستسدي لي خدمة كبيرة.

لكن الأمور باتت أكثر تعقيداً بعد أن عرفها. . .وإن قرر ألا يعود ثانية، فستعتبر المسألة شخصية. . لذا، أجاب الصوت الذي لم يتوقف عن الكلام حتى بعد أن طلب منه أن يصمت: «أجل. . سأعود حتماً في الغد».

بينما كانت كريستن موريسون تقود سيارتها، اجتاحتها موجة من الحر شبيهة بتلك التي تجتاح امرأة تلعب بالنار، مع أن جهاز التدفئة في السيارة لم يكن قوياً بما فيه الكفاية ليخفف من حدة البرد. هل كانت تدرك عواقب ما أقدمت عليه عندما وضعت أحمر الشفاه على شفتيها، وخلعت سترتها وطلت أظافرها بطلاء الأظافر؟

كم من المهين أن يُفتضح أمرها بهذه السرعة!. . إنه مجرد تحذير من مدى خطورة نيرانه لاسيما وأنه خبير في النساء ويدرك ما يفكرنّ فيه. فقد فهم دوافعها حتى قبل أن تتمكن هي نفسها من إدراك حقيقتها. . . وما زاد الطين بلة هو أنه أفصح لها عن مصابه والفاجعة التي ألمت به يوم خسر أفراد عائلته. انفطر قلبها حزناً عليه، وأحست بأن من واجبها أن تساعد مايكل برويستر على تخطي فترة عيد الميلاد بأقل ضرر ممكن.

لكن كيف ستتمكن من المكوث معه في الغرفة نفسها من دون أن تطلق العنان لأحلامها الخيالية التي تتخطى الواقع بأشواط؟

- كفى!

هذا جزاء من تتودد إلى رجل غريب! لكن دوافعها كانت نبيلة، إذ أرادت محو القسوة التي ظهرت في عينيه. . .أو لعلها كانت تتحرق شوقاً لمعانقته وكأنه خشبة خلاص يمكنها التشبث بها.

لكنها عندما لمست خدّ مايكل لم تكتشف حقيقةً تتعلق بمايكل بل بالأسرار الكامنة في أعماقها. . .إذ كان في داخلها شعور بدائي، شعور أشبه بالتوق الملح الذي يمكن أن يقلب عالمها المتزن رأساً على عقب. . ولعل أكثر ما أثار دهشتها هو أنه بدا أمامها ضعيفاً وكأنها سلبته قوته. . .

حذرها مايكل بوريستر من أنها لا يملك ما يقدّمه لها وهي تعي تماماً أنه من الحكمة أن تثق بكلام رجل يتفوه بكلام مماثل. . .

منذ صغرها، تميزت كريستن بحكمتها وطبعها العملي. . . وها هي اليوم تعلن فجأة رغبتها في التخلي عن حكمتها وطبعها العملي لتتحول إلى فتاة جذابة ومثيرة. .

كما تاقت لأن تكون من يضمد الجروح التي مزقت روحه. .

وفجأة، ارتطمت بطبقة سميكة من الجليد فانزلقت السيارة رغم جهودها الحثيثة للسيطرة عليها. . انحرفت السيارة عن الطريق واصطدمت بالحافة قبل أن تتوقف على بعد إنشات قليلة من عمود الهاتف فوقعت كافة الأغراض الموضوعة على المقعد الخلفي على الأرض. .من

حسن حظها أن الوقت كان متأخراً والطريق خالية من السيارات..

أخذ قلبها يتخبط بين ضلوعها وأدركت في الحال أن القدر شاء أن يلقنها درساً فعلاقتها بمايكل برويستر ستوصلها إلى قمة منحدر زلق، ومن الممكن أن تفقد السيطرة على الأمور في أي لحظة.

ارتعدت فرائصها فأنبت نفسها لأنها تغالي في ميلها إلى الدراما وفي خوفها من أن تتعرض للأذى، فالإنسان الواقعي لا يمكنه أن يتوقع أن يعيش حياته من دون صدمات وكدمات..

وتذكّرت فجأة علاقتها بجايمس والأسابيع الستة التي أمضتها وهي تخال نفسها مغرمة به..كان بارعاً في التمثيل فأغدق عليها الحنان والاهتمام والهدايا..وفجأة، ومن دون أي شعور بالحرج، أخبرها أنه كان مهدداً بالطرد من فريق كرة القدم إذا لم ينل علامات أفضل في الرياضيات فوجد فيها خير منقذ من هذه الورطة. بقيت على مدى أسابيع طويلة تبكي الليل بطوله حتى ينهكها التعب فتستسلم للنوم. لكن إن نجح ذلك الشاب السطحي، المغرور والاستغلالي في أن يسبب لها كل هذا الأذى، فما عساها تتوقع من ذلك الدب المجروح مايكل برويستر؟ قالت لنفسها بحزم: «سيصاب بالملل في غضون أسبوع واحد فقط ويعود إلى ممارسة النشاطات التي يمارسها أمثاله من الرجال».

وتدافعت في رأسها صور عارضات الملابس الداخلية، ورحلات السفاري، وطائرات الهيلكوبتر والمغامرات الخطيرة... كلا.. لم يكن من النوع الذي يشغل نفسه بتركيب الدراجات أو تمضية الوقت برفقة فتاة تهوى ارتياد النوادي الأدبية..

في هذه الأثناء، ستريح ضميرها فلن تضع أحمر الشفاه، وتتفرغ بالتالي للعب دورها وبذل كل ما في وسعها لمساعدته على الشفاء..

أعلنت في سرها عن سخطها. أصحيح أنها قالت له بكل ثقة في النفس إنها تملك الوسيلة الملائمة لمساعدته على تخطي هذه المرحلة؟ وكأنها نجحت في التغلب على مآسيها الشخصية..كيف خيل إليها أنها ستجيد التصرف في هذا المجال؟

كلا..أسبوع واحد فقط ويصبح مستعداً للرحيل..وتصبح هي مستعدة لتوديعه.

استدارت كريستن لتتأكد من أن الكتيّب الذي حصلت عليه مؤخراً لم يتأذى بسبب انزلاق السيارة. قلبت الأوراق المبعثرة ولم تجده بينها فقطبت استياءً وقد أدركت أنها نسيته في المكتب.

أيعقل أن تكون قد نسيته عندما أصر على مرافقتها إلى السيارة؟ هل كانت ترفض في لاوعيها أن تسمح لمايكل باكتشاف مدى اهتمامها بالتماثيل الصغيرة؟ كرهت نفسها لأنها كانت تسعى إلى إخفاء حقيقتها أو الظهور بمظهر مختلف.

كانت واثقة من أن مايكل سيرحل في نهاية المطاف ويمكنها عندئذ أن تعود إلى ممارسة هوايتها المفضلة والانغماس في العالم السحري الآمن الذي أوجده لو ليتل.

* * *

لكن مايكل لم يمل من تركيب الألعاب كما أنّ تفرغه لم يثر فضول أحد: لمَ يكرس هذا الرجل القوي البنية وقته كله من أجلهم؟

أعرب جميع المتطوعين عن حبهم له من دون تحفظ. لعلهم شعروا بالحزن الكامن خلف الغطاء الجليدي وأدركوا أن الإلحاح عليه ليدلي بالمزيد من التفاصيل ستجعله ينفر منهم..

لم تدرك كريستن أن الأمور أصبحت راكدة في جمعية بابا نويل السرية حتى اقتحم مايكل حياتهم مثل نسمة الهواء المنعشة..

لا عجب في أن يكون قد أدرك الغاية من وضعها أحمر الشفاه! فكل أنثى تدخل المكان، سواء كانت في التاسعة عشرة أو التسعين من العمر، تغازله بلا حرج.. إذ كانت السيدتان هيندرسون وجاكوبز تتنافسان على تحضير البسكويت له..فقد اعتادتا أن ترسلا له يومياً كمية من البسكويت. وأمام هذا الاهتمام الكبير به، لم تشأ لولو بيشوب أن تبقى على الحياد، فقررت أن ترسل إليه كعكة عيد الميلاد التي فاحت رائحتها في مكتب كريستن.. علماً أن العائلات الثلاث دعته لمشاركتها عشاء

عيد الميلاد..

وجدت كريستن الأمر مثيراً للسخط. فمع أنها عزباء وتقيم وحدها، إلا أن أحداً لم يرسل لها البسكويت أو يدعوها لمشاركته عشاء عيد الميلاد. فهي لم تخبر أحداً طبعاً أن شقيقتها بيكي وابنها غرانت اللذين انتقلا للعيش في أريزونا، لن يتمكنا من العودة إلى تريمونت هذه السنة.

زارتهما كريستن مرة واحدة في أريزونا وأقسمت بألا تعود ثانية فقد توقعت ألا يتمكنا من البقاء طويلاً بعيداً عن موطنهما، وإذا بها تفاجئ برؤيتهما سعيدين في حياتهما الجديدة بعد أن تركا خلفهما كل ما يمكن أن يذكرهما بالماضي الأليم.

انزعجت كريستن لدى اكتشافها أنها كانت مخطئة بشأن مايكل، فبعد أن أنهى تركيب الدراجات لم تظهر عليه علامات الملل بل بدا سعيداً جداً بفتح العلب، وقيادة الشاحنة القديمة لجلب الهبات، وفرز الألعاب المستعملة للتأكد من إمكانية إنقاذها فضلاً عن برمجة أجهزة الكومبيوتر الغريبة المرسلة إليهم..

ولم تكد تمر فترة وجيزة حتى أدركت كريستن أن جمعية بابا نويل ما كانت لتتمكن من البقاء من دونه... فكم من الوقت سيمر قبل أن تشعر بأنها لن تتمكن من العيش من دونه أيضاً؟

٤ - لا يهمني رأيك

ثلاثة وثلاثون يوماً قبل حلول عيد الميلاد...

- مايكل... هلا عاونتنا على تغليف الهدايا؟ علي أن أنقل بعض الأغراض إلى المخزن إذ بات المكان هنا مزدحماً.

رمقها مايكل بطرف عينه بينما هو منهمك بتركيب حصان خشبي هزاز. كانت كريستن قد رفعت شعرها الطويل بمشبك تماماً كما اعتادت أن تفعل كل يوم منذ أن بدأ بالحضور إلى هنا. بدا تصرفها هذا كموقف فتاة لا تبغي أن تلفت انتباه أي رجل.

في الواقع، جاءت نتائج الجهود التي كانت تبذلها عكسية، وشعرها المرفوع إلى الخلف هو خير دليل على ذلك إذ أبرز بنية عظام كريستن التي تتميّز بروعتها، ودقتها وأنوثتها النابضة. كما أن شعرها المرفوع يثير في الرجل رغبة ملحة في فكه، والاستمتاع بملمسه السحري وهو ينساب بين أصابعه..

أجابها متذمراً: «تغليف الهدايا؟ لا أظن أن هذه المهمة تليق برجل مثلي».

- حسناً، إن كنت تشعر بأن رجولتك مهددة، يمكنني أن أطلب العون من شخص أكثر ثقة بنفسه.

- كما تشائين.

ورسم ابتسامة على شفتيه وكأنه يتحداها أن تعثر على شخص سواه.

رمته بنظرة ساخطة وقالت: «لا يمكنك أن تتصور الورطة التي يمكن أن نقع فيها إن لم نغلف الألعاب ونلصق عليها البطاقات. لا يمكن تأجيل هذه المهمة حتى الساعة الأخيرة».

- أظن أنها الساعة الحادية عشرة..

www.elromancia.com

كان يتحلى بالقدرة على إرباكها، ويجد في ذلك متعة لا تضاهى. وعندما بدأت الحمرة تعلو خديها راهن في سره على أنه قادر على جعلها تحمر أكثر إن بذل القليل من الجهد.

- انظري إلى هاتين اليدين.

ودنا منها ومد يديه أمامها لتتفحصهما فكست الحمرة وجهها، حمرة مميزة ساحرة كانت تحتفظ بها له وحده.

قال لها برقة محاولاً إرباكها أكثر: «لست واثقاً ما إذا كان تغليف الهدايا يليق بهاتين اليدين».

ازداد احمرار وجهها حدة وسمعها تتمتم شيئاً عن سمكة ما..

- إنه حصان خشبي هزاز.

والتفت ليرى ما إذا كان قد أساء تركيب الحصان لكنه بدا في نظره حصاناً. وتابع كلامه قائلاً بنبرة حشد فيها أكبر قدر ممكن من البراءة: «تركيب الأحصنة الخشبية الهزازة هي أفضل مهمة يمكن أن تؤديها هاتان اليدان... ستضيع موهبتي سدىً في قسم تغليف الهدايا».

كان مايكل قد قطع وعداً على نفسه بألا يحاول استباق الأمور...

فبعد تلك الليلة التي أمضاها وهو يقوم بتركيب الدراجات عاد إلى منزله عاقداً العزم على ألا يعود ثانية. كان التعامل معها عسيراً... ومشاعره نحوها معقدة للغاية.

لكن المشكلة هي أنه لم يعد يرغب في مشاهدة التلفزيون. وأدرك أنه في حال أفضل. حسناً، لا يمكنه القول إنه في حال جيدة لكنه أفضل حالاً وكأنه لمح خيط شعاع شمس من خلال الغيوم السوداء التي تنذر بهبوب العاصفة.

كان يبحث عن خشبة خلاص ويسأل نفسه في لحظات اليأس كيف سيتمكن من البقاء؟ لكنه لا يستطيع أن يهرب الآن من هذا الشيء الذي قد يشكل رداً على تساؤلاته.

وأخيراً، قرر أن يقصد جمعية بابا نويل السرية حتى في الأيام التي لا يشعر فيها برغبة في النهوض من السرير، ويؤدي المهام المطلوبة منه.

وإن طُلب منه تغليف الهدايا، فلن يتقاعس عن القيام بذلك. لكن ما لم يكن في الحسبان هو أنه تمكن من جعل كريستن تمضي وقتاً عصيباً..

كانت الأمور تسير حتى الآن على أفضل ما يرام. فقد تولى مايكل تجميع الألعاب، ورفع الأغراض الثقيلة، وقيادة الشاحنة فضلاً عن وضع المزيد من الرفوف.

كانت الجمعية بحاجة إليه. وكان دائم الانشغال لا بل أكثر انشغالاً منه أثناء إصلاحه منزل السيد ثيودور، ما شكل بلسماً لروحه.

وفي كل يوم، كان مايكل يواجه التحدي نفسه وهو التحكّم بنفسه لئلا ينظر إلى شفتي كريستن وشعر بشيء من الرضا عندما أدرك أنها تبذل الجهد نفسه. وغمره إحساس بالارتياح لأنه قادر على جعلها تحمر خجلاً، مرة واحدة في اليوم على الأقل، أو أكثر في الأيام التي يحالفه الحظ فيها.

وفي إطار الحملة التي شنتها لمحو ذكرى تلك الليلة الأولى من ذهنها، لم تكتفِ كريستن بالامتناع عن وضع أحمر الشفاه بل عمدت إلى ارتداء السترات الرثة، والقمصان البخسة الثمن، والسراويل الفضفاضة، رافضة وضع طلاء الأظافر من جديد وكأنها توجه إليه رسالة صامتة تقول فيها «لا يهمني رأيك بي».

إلا أن كريستن ليست من النوع الذي يكذب، فعيناها تقولان إنها تهتم لأمره، مع أنه حذرها صراحة بأن اهتمامها به سيضعها في دائرة الخطر.. وقد ساهم اختيارها للملابس الفضفاضة في إضفاء مظهر فاتن عليها، مظهر جعلها أشبه بفتاة صغيرة مشردة قادرة على أن تثير في قلب رجل ضخم الجثة مثله، رغبة بدائية وغريزية في حمايتها والاهتمام بها.

اختارت كريستن في ذلك النهار سروالاً أشبه بسروال والدته الجينز وقميصاً أحمر، كُتب عليه بأحرف عريضة «أحب بابا نويل».

وعلى الرغم من ذلك، أغوته فكرة قراءة الشعار على صدرها ببطء شديد، حتى أصبح لونها قرمزياً فرفع عينيه نحوها قائلاً بنبرة خبيثة: «هل ترغبين في الجلوس في حجري يا صغيرتي؟».

من الأفضل له أن يتوخى الحذر في تعامله معها إذ اعتادت كريستن أن تفاجئه بتصرفاتها، ومن الممكن أن تفعل ذلك في هذه اللحظة.

- ماذا تريدين كهدية في عيد الميلاد؟

إنها الطريقة الأنسب للتعبير عن شكره على كل ما حصل عليه هنا من دون أن يتورط بصورة شخصية.. يمكنه أن يختار لها بعض الملابس الملائمة... ألا تعتبر هذه الهدية غير شخصية؟

- يكفيني أن تساعدني على تغليف كافة الرزم قبل حلول الميلاد.

خطر له أن يشتري لها جروراً... إنها الطريقة المثلى لهدم كافة دفاعاتها. كان يتوق لرؤيتها تذوب رقة وحناناً وهي تداعب كرة ذهبية مكسوة بالفراء... فهو واثق من أنها ستبدو أشبه بطفلة مدللة..

عاد وذكر نفسه بأنه هو من ساعدها على بناء دفاعاتها. لمَ يريد هدمها الآن؟ ألم يكن هو من حذرها بأنه مرتبط؟

- تقول السيدة هندرسون إنها لن تعطيك قطعة واحدة من البسكويت بالشوكولا إلا إذا شاركت في تغليف الهدايا.

تريد العبث معه؟

- حسناً، حسناً...

وتظاهر بالإذعان لمشيئتها ثم أضاف وهو يتظاهر بالانهماك في تثبيت عين الحصان الزجاجية الشبيهة بالخرز: «هلا أحضرت هذه اللعبة عن الرف العلوي؟ أظن أنني رأيت طلباً بشأنها على لوحة الإعلانات».

جرت العادة أن يعلقوا الطلبات على لوحة الإعلانات والعمل على جعلها تتطابق مع الهبات الواردة إليهم. لم تكن هذه الوسيلة الأكثر فعالية ما جعل مايكل يصمم على إيجاد وسيلة أفضل إن قدر له البقاء لمدة أطول.

كم ينوي البقاء هنا؟ فاجأه الرد الآتي من داخله.. فهو لم يعد ذلك الرجل الذي يضع الخطط على المدى الطويل بل بات يكتفي بالتعامل مع المفاجآت التي يحملها إليه كل يوم جديد. بيد أنه كان يعلم أنه ملتزم بالعديد من الأعمال حتى عيد الميلاد... ملتزم..

أثارت هذه الفكرة انزعاجه وشغلت تفكيره لبرهة من الوقت، لكنه عاد وتنبه إلى أن خطته نجحت. وقف مايكل يراقب كريستن وهي تبحث عن اللعبة التي طلبها، وفي عينيه لذة خبيثة... ومع أنها سحبت مسند القدمين لتقف عليه إلا أنها اضطرت لأن تمد جسمها لتصل إليها..

كانت اللعبة بعيدة فوقفت على رؤوس أصابعها ومدت يدها لتصل إليها... إلا أنها ما لبثت أن فقدت توازنها. أسرع مايكل كالبرق ليحيط خصرها بذراعه ويحملها ويضعها على الأرض. ولم يرخِ قبضته على الفور فمكثت لبرهة من الزمن جامدة لا تتحرك..

وسرعان ما أدرك أنه يواجه مشكلة من نوع آخر: ففي حين كان يعبث معها، استيقظ في داخله جوع شديد للمسها والإحساس بنعومة بشرتها والتواصل معها.. وبقيت ذراعه حول خصرها فعبقت في أنفه رائحتها الناعمة الشبيهة برائحة زهر الغاردينيا..

- فلتتعاون جميعاً على تغليف الهدايا.

كان مكبر الصوت قديماً متداعياً فخرج الصوت منه أشبه بفرقعة قوية...

ابتعد مايكل عن كريستن على عجل وكأنهما مراهقان عابثان قبض عليهما الشرطي متلبسين في المقعد الخلفي للسيارة..

لحق بها إلى الغرفة المخصصة لتغليف الهدايا حيث وُضعت طاولتان كبيرتان وزعت عليهما الشرائط والعقد والأوراق المخصصة لتغليف الهدايا، فوجد في انتظاره عضوات الجمعية المخلصات اللواتي يلعبنّ دور والدته ببراعة مطلقة!

رمق طبق البسكويت بطرف عينه وشعر أنه قادر على التهام القطع الموضوعة فيه في غضون خمس عشرة دقيقة..

وفجأة، علت الموسيقى في المكان فصرخ معترضاً: «لا.. لا يمكنني أن أتحمل ذلك... أتوسل إليكنّ».

يبدو أنه لم يكن الوحيد الذي يستمتع بالمواقف الغريبة الخبيثة إذ انفجرت العجائز الثلاث ضحكاً عند سماعه يتذمر..

كنّ يعشقنّ الألحان الميلادية التقليدية، في حين أن مايكل يفضل الألحان الحديثة. سألته كريستن والحمرة تعلو خديها: «أي نوع من الموسيقى تفضل؟».

- أفضّل الموسيقى العصرية... كالروك مثلاً.

لبّت طلبه على الفور بينما ابتسمت النسوة بحنان عند رؤيتهنّ تعابير وجهه.. فمنذ وصوله إلى هذا المكان وهو يطالب بموسيقى الروك اند رول، لكن طلبه لم يلقَ يوماً آذاناً صاغية..

كانت هذه هي المرة الأولى، منذ وقوع الحادث، التي يشعر فيها بأن الوقت يمر بسرعة غريبة... فالنسوة يدللنّه خير دلال، وكأنه بلغ الواحة بعد عبوره الرمال الحارقة...

لم يكن مايكل برويستر من النوع الذي ينقاد وراء الأوهام، أو يؤمن بالأمور الخارجة عن إطار المألوف. فالحقيقة الوحيدة بالنسبة إليه هي التي يمكن لمسها، وتذوقها، وشم رائحتها والإحساس بها..

ومع ذلك، ساوره شعور من الصعب تفسيره، وكأن والدته حاضرة معه.. ربما لأن هؤلاء النسوة يشبهنها إلى حد بعيد، فتراهنّ يقطبنّ جبينهنّ كلما سمعنه يشتم ويسامحنه على الفور عندما يعبّر عن أسفه. وهنّ يحضرنّ له البسكويت والأطباق الشهية، ويتبرعنّ لرتق سرواله، حتى أنه لم يعد يعلم كيف سيرفض الدعوات التي تلقاها للمشاركة في عشاء عيد الميلاد من دون أن يجرح إحساس احد..

وعندما عرضت عليه السيدة جاكوبز أن تنظف منزله، سألها: «كيف علمت أنه يحتاج للتنظيف؟»

أجابته وقد علت وجهها ابتسامة شبيهة بالابتسامة التي ارتسمت على وجه والدته يوم رأت شقته القذرة للمرة الأولى: «توقعت ذلك».

ومع أنه كان واقعياً إلى حد كبير، إلا أنه وجد نفسه يتساءل في بعض الأحيان ما إذا كانت والدته قد قادته، بطريقة أو بأخرى إلى هذا المكان، حيث تهافتت النساء على تدليله والاهتمام به.

صدحت أغنية كلاسيكية لأحد الفنانين المفضلين لديه في أرجاء

الغرفة ما جعل مايكل يدرك أنه حبس أنفاسه وشبك أصابعه خشية أن يخترنّ أغنية مريعة..

تنفس الصعداء وقد شعر بالحر.. الحر الشديد.

بحق السماء! لأسبوع خلا، كان يتباهى بعدم إحساسه بالبرد أو الحر أو حتى الحياء.. عليه أن يغادر هذا المكان من دون أن ينظر وراءه... لا، عليه أن يهرب مما يحصل له، وتلك العودة الموجعة والبطيئة لأحاسيسه، والرغبة في استعادة الأمل والإيمان بأن الحياة يمكن أن تكون ممتعة..

لكن إن لاذ بالفرار الآن فستصاب النسوة بالهلع ويتخيلنّ أنهنّ لم يحسنّ التصرف معه فقد بدونّ جميعاً راضيات عن المؤامرة التي حكنّها لمفاجأته بموسيقاه المفضلة...

قال لهنّ وهو يحاول أن يخفي حقيقة ذوبان الجليد في داخله: «يمكنني تغليف الهدايا بسهولة على وقع هذه الموسيقى».

تنهدت السيدة هندرسون ورمته بالشريط اللاصق فضحكت السيدة جاكوبز بينما اهتز جسد لولو الضخم. كانت كريستن تنظر إلى الرزمة الموضوعة أمامها وتغلفها بحماسة جنونية.

- أترغبين في الرقص يا كريستن؟

هل أراد أن يغيظها أم أن يرضي نفسه؟

أجابته من دون أن ترفع نظرها: «كلا».

فصرخت لولو قائلة: «ارقص معي»..

رقص مايكل بالتعاقب مع لولو، والسيدة هندرسون والسيدة جاكوبز، على وقع الأغاني التي جمعنّها خصيصاً من أجله...

كلا.. ليس هنّ... إذ لا يعقل أن تختار أي من هؤلاء العجائز أغانٍ أكثر حداثة من أغاني فرانك سيناترا... إنها هدية من كريستن التي صممت على تجاهله تماماً وهي تتمتم ساخطة عن ضرورة الانتهاء من تغليف الهدايا في أسرع وقت ممكن.

- كريستي.

كانت تلك المرة الأولى التي يناديها بهذا الشكل المختصر لاسمها.

- تعالي.

- كلا.

لكن العجائز أبينّ الامتثال لرغبتها، فاستخدمت لولو قوتها البدنية لترغم كريستن على الابتعاد عن الطاولة قائلة لها: «ارقصي معه».

وقفت كريستن أمامه بتحدٍ شابكة ذراعيها فوق القميص الخاص ببابا نويل وراحت تطرق الأرض بكعب حذائها.

- أليس من الأفضل أن ننتهي أولاً من تغليف الهدايا؟

وتغيّر اللحن، وصدح من المذياع القديم صوت حزين يشدو بأغنية عن امرأة جميلة...

قال لها بنبرة خافتة: «هل تسمحين لي بهذه الرقصة؟»

وتنبه فجأة إلى أنه يتحرق شوقاً لسماع موافقتها على الرقص معه ليتسنى له أن يلمس بشرتها مرة أخرى..

- كلا.

فقال لها عابثاً: «هيا يا كريستن..خففي قليلاً من جديتك».

- لا أريد أن أخفف من جدّيتي...

وأضافت هامسة في أذنه: «يمكنني أن أتخيل ما قد يحصل للمرأة التي لا تتعامل معك بجدية».

- حقاً؟ أفكارك سيئة. لكن الكل رقص معي.

- هذه هي المشكلة. فأنت شديد الثقة في جاذبيتك مع أنك رجل مرتبط... أظن أن ثمة صفة تطلق على أمثالك من الرجال.

- ما هي؟

- أظنك تعرفها جيداً.

أجابها بعناد: «كلا..لا أعرفها».

- أنت رجل عابث.

تكلمت بصوت خافت، خافت جداً... لكن لو تسنى لإحدى العجائز أن ترى التعبير المرتسم على وجهها، لأدركت أنها كانت تتفوه

بكلام عابث ليست معتادة على التفوه به..

- وثمة صفة تُطلق على أمثالك من الفتيات.

حدقت فيه باستغراب..

- أكثر نقاوة من الثلج المتساقط

لم تشعر بالإهانة وهي تسمعه يتفوه بتلك الكلمات فقالت: «هذا بحسب معاييرك».

لم يخالجه هذا الإحساس بالمرح والنشاط منذ زمن بعيد جداً..أيجرؤ على القول إنه سعيد أيضاً؟

- اسمعي..أنا رجل محطم القلب يبحث عن ملاذ له.

أراد أن تعبر كلماته عن الإحساس بالسعادة الذي غمره غير أنها لم تحقق الغاية المنشودة وبدت وكأنها تخرج من مكان مظلم في أعماقه، مكان لم يرَ النور منذ فترة طويلة جداً..

تلعثمت كريستن وارتبكت..لقد لعب ورقة القلب المحطم لحثها على الموافقة على الرقص معه... بدا تصرفه خسيساً للغاية إلى أن لمست يده يدها فسكنت العاصفة المتأججة في داخله، واخترق شعاع من النور أحلك الظلمات..

بقيت تقنيات الرقص التي تعلمها في الماضي البعيد محفورة في ذاكرته. وبقدر ما كان يتوق إلى ضمها، والتمسك بالشعور الذي تثيره فيه رافضاً التخلي عنه، لم يستطع أن يفعل ذلك..إذ لا يجوز أن يضم فتاة مثل كريستن إلى صدره، ويمسك بها على مسافة قريبة منه، من دون أن يفصل شيء بينهما، حتى نسمة الهواء..

لا..شبك يدها بيده وأحاط خصرها بيده الأخرى، محافظاً على مسافة كبيرة بينهما لتتمكن حتى لولو من أن تندس بينهما إن شاءت ذلك...

وكم كانت دهشته كبيرة عندما لاحظ انزعاج كريستن من شهامته: «إنها الطريقة المثالية للرقص مع جدتك».

وبينما توقع أن تكون متصلبة أثناء الرقص معه، وجدها تتحرك بليونة

www.elromancia.com

وإغراء، لتروي ظمأه الشديد وتزيد من حدته في آن معاً.

وبعد أن رقصا معاً قليلاً، قالت له: «لست بارعاً في الرقص».

- أحاول أن أتذكر ما تعلمته في حصة الرقص في الصف الثامن.

- أتريد القول إنك لم ترقص منذ الصف الثامن؟

- ليس بهذه الطريقة.

- كيف ترقص عادة؟

ظن مايكل أنها دعوة صريحة فراح يتخيل ذراعيها المشبوكتين حول عنقه، وجسدها الرشيق الصغير المتمايل على مسافة قريبة جداً من جسده. وحاول عبثاً أن يتجاهل هذه الصور، فلم يجد أمامه سوى أن يسرد مغامراته في الصف الثامن: «كان علي أن أرقص مع ميلي ميلوورث.. كانت تفوقني ذكاءً، فأمسكت بي بطريقة تنم عن الازدراء».

- أيعقل أن يكون تعذيبك لها هو السبب؟

- لمَ تدافعين عنها مع أنك لا تعرفينها؟

- أنا لا أدافع عنها لكنني أعتقد أنها ادّعت أنك لا تعجبها لئلا تؤذيها.

أيعقل أن تكون قد اختارت ارتداء الملابس الفضفاضة لتوحي للرجل أن رأيه فيها لا يهمها؟

سألها: «كيف عرفت هذه الأمور عن شخص لم تلتقي به من قبل؟».

- ربما كنت هي.. وأنت جايمس موريارتي.

- لمَ يساورني شعور بأنه كان أحمق؟

وداس على قدمها الصغيرة الرقيقة برجله فصرخت من الألم.

- آسف.. هل كان أحمق؟

- أجل.

- هل أساء التصرف معك؟

- أجل.

- سأبحث عنه وألقنه درساً من أجلك..

وراقت له الفكرة كثيراً ما أثار استغرابه.

- أشكرك، لكنني أصبحت فتاة راشدة، ولن أسمح لهفوات الماضي بإزعاجي بعد اليوم.

تغيّرت لغة جسدها ما أن ذكرت اسم جايمس ما جعله واثقاً من أنها تكذب.. غير أنه ارتأى ألا يلح عليها في هذا الشأن.

- كما أن هذا التصرف لا يتناسب مع روحية العيد..

- لماذا؟ ماذا تتخيلين أنني قد أفعل إن التقيت بجايمس في زقاق مظلم؟

- ستقدم حتماً على تصرف رجولي فظ.

- دفاعاً عن شرفك. ألا يرضيك هذا؟

كان مايكل قد بدأ يستمتع بالرقص معها إذ جعله يسترخي، كما أحب الشعور الذي أثارته في نفسه يدها المشبوكة بيده وتلك التي ترتاح على كتفه. وتذكّر الأيام الخوالي، يوم كان والداه يرقصان معاً وكأنهما يستمعان إلى الموسيقى نفسها، وتغمرهما المشاعر نفسها فأطلق العنان لنفسه وحاول أن يقلّص المسافة التي تفصل بينهما، وإذا به يتعثر بكومة من الدببة ويكاد يوقعها أرضاً ما جعله يفلتها رغماً عنه.

بدت كريستن وكأنها نجت لتوها من خطر الموت. وأدرك في الحال أن الرقصة انتهت فقد قرأ ذلك في عينيها. كانت تخشى أن يلحق بها الأذى، ومن الممكن أن يفعل ففي داخله الكثير من الفراغ الذي لا يمكن لشيء أن يملأه.. ؟. حتى حب فتاة ساحرة مثلها.

قالت له بصوت مرتجف: «أتعرف ما الذي قد يرضيني؟ أن أنتهي من تغليف الهدايا».

انحنى أمامها وقد قرر أنه من الأفضل ألا يتشاجر معها لاسيما بعد أن غمره شعور غير مرغوب فيه بالأسف..

ماذا لو كان قد التقى بها قبل وقوع الحادث؟ وقبل أن يخسر كل ما يحبه على عمق أربعين قدماً في البحار؟ لا بد أنه كان ليفضل عليها عارضة أزياء أكثر جاذبية..

يبدو أن العذاب الذي ذاقه أكسبه القدرة على رؤية ميزات المرأة..

فقد كان في الماضي شاباً سطحياً يبحث عن اللهو فقط، ولا يحبذ مطلقاً العلاقات الجدية...

كان يعي تماماً أن كريستن قلبت مقاييس الأمور، فالرقص معها فاق توقعاته لاسيما وأنها تمكنت من مجاراته... لم يشعر بالفرق بين قامتها الرقيقة الصغيرة وبنيته الضخمة، بل بدت مرنة، رشيقة، مفعمة بالأنوثة وفاتنة الجاذبية..

سألها قبل أن تتمكن من الفرار منه، وقد رأى شيئاً من الضعف في عينيها: «ماذا تريدين في عيد الميلاد؟».

أجابته بسرعة: «أريد جنياً.. وعدتني بأن تجلب لي جنياً.. سأكون أسعد امرأة في العالم إن تمكنت من العثور على جني».

وما إن تلفظت بتلك الكلمات حتى انكشفت له حقيقة مذهلة. فعلى الرغم من أنها محور هذه النشاطات كلها، وعلى الرغم من أنها تبدو دائمة الانشغال وذات عزيمة لا تقهر، ومع أن المتطوعين يحتاجون إليها ويحبونها ويقدرونها، ومع أنها أحاطت نفسها بألعاب سحرية تحوّل الأمنيات إلى حقيقة، لم تكن كريستن موريس سعيدة..

فعندما نظر في عينيها تمكن من كشف سرها الدفين: كانت كريستن تخشى عيد الميلاد أكثر منه.

لعل أكثر ما تكرهه كريستن في مايكل بروبستر هو هذه النظرة التي يرمقها بها في هذه اللحظة وكأنه قادر على قراءة أفكارها.

لا.. هذا ليس صحيحاً.. فأكثر ما تكرهه فيه هو تلك القدرة على جعل السيدة جاكوبز تنفجر ضاحكة، ولولو بيشوب تقهقه والسيدة هندرسون تتحدث عن زوجها الذي توفي العام الفائت.

إن أكثر ما تكرهه فيه هو تلك البراعة التي أظهرها في الحصول على هبة تسعى للحصول عليها منذ أشهر طويلة.

إن أكثر ما تكرهه في مايكل هو قدرته على جعلها تحمر خجلاً من خلال إطالته النظر إليها... إن أكثر ما تكرهه فيه هو أن أيامها كانت متشابهة قبل وصوله، وفجأة وجدت نفسها ترقص فيما يخالجها إحساس

غريب، مثير للشفقة، وكأن حياتها بدأت في تلك اللحظة وكأنها ولدت لترقص مع هذا الرجل..

إن أكثر ما تكرهه في هذا الرجل هو أنها كلما ظنت أنه العابث الأكثر ثقة في النفس في الكون، رأت في عينيه تلك النظرة الشاردة والطبقة الجليدية المثقلة بالكآبة... كانت تدرك أن الوقوع في حبه صعب وسهل في آن معاً..

قال لها صراحة إنه رجل مرتبط. لكن عندما رقص معها، وأغاظها، ونظر إليها، ولمسها بتينك اليدين القاسيتين من كثرة العمل، أحست وكأنه ليس مرتبطاً أو قد لا يكون كذلك..

من الأفضل ألا يشتري لها هدية لأنها ستكون حتماً مثيرة للشفقة. فكلما نظر إليها، أحست وكأن أسرارها الدفينة ظهرت للعلن.. لا.. لم تكن، في نظره، أهم من ميلي ميلزوورث، وسيختار لها حتماً هدية لا تحمل أي طابع شخصي مثل تلك القفازات أو القبعات التي تصلها في هذه الفترة من السنة، موضّبة في علب جميلة.

لن تقول له الحقيقة أبداً.. لن تقول له أبداً إنها لا تبغي شيئاً إلا ذاك الإصدار المحدود من تمثال «الفارس الذي يحمل درعاً لامعاً».. كانت واثقة من أنه سيجد مجموعة ليتل مثيرة للشفقة ومضحكة..

قالت له لولو في اللحظة التي قررت فيها كريستن أن تحتفظ بحبها لمجموعة ليتل لنفسها: «تريد تمثالاً من مجموعة ليتل».

رمقتها كريستن بنظرة ساخطة فقد اعتادت المتطوعات أن يتبرعن بالنقود ليشترين لها أحد التماثيل الصغيرة المفضلة لديها..

لم تلاحظ لولو نظرات كريستن الغاضبة لأنها كانت منهمكة بتزيين العلب بشرائط.

وسألها ضاحكاً: «ماذا؟»

لم يكن مايكل يملك أدنى فكرة عن مجموعة ليتل من التماثيل الصغيرة.. لِمَ حملت ضحكته شيئاً من السخرية؟

وفجأة، راحت كريستن تسعل فرفعت لولو نظرها إليها لتراها تشير لها

بإصبعها مهددة..

سارعت لولو تقول: «لا شيء..لم أقل شيئاً».

- هيا يا لول..قولي لي ما الذي تريده.

- حسناً، ظننت أنني أعرف ما تريده لكن يبدو أنني كنت مخطئة. سأعيد مساهمات المتطوعين إليهم.

خسرت كريستن بسببه فرصة إضافة تمثال صغير جديد إلى مجموعتها. لكن الأمر يستحق العناء فهي لم تشأ أن يعرف حقيقة افتتانها بمجموعة «لو ليتل».

قال لها بنبرة مرحة: «كنت واثقاً من أنك تريدين جرواً».

أجابته بنبرة تحاكي نبرته مرحاً: «لدي حساسية على الكلاب».

تساءلت كريستن في سرها ما إذا باتت مرغمة على شراء هدية له بعد أن طرح موضوع تبادل الهدايا. لم ترحّب بالفكرة أبداً فالبحث عن هدية له أشبه بكابوس في ظل سعيها لتبدو مهتمة به وليس متيمة به.

كانت كريستن معتادة على شراء الهدايا الصغيرة للمتطوعين كتعبير عن تقديرها لعملهم. وكم كانت تتمنى لو أنها تصرّفت بموضوعية أكبر في السنوات الماضية مكتفية بشراء علب الشوكولا أو زيوت الاستحمام. كلا، كان عليها أن تثبت مكانة كل واحد منهم في قلبها من خلال اختيار الهدية المناسبة له، فاختارت للولو وشاحاً حريرياً، وللسيدة هندرسون كأساً خاصاً بالتوت البري لتضيفه إلى مجموعتها، وللسيدة جاكوبز قسيمة شراء ديك رومي نظراً للعدد الهائل من الأشخاص الذين تطعمهم سنوياً، وللسيدة تامبل جوارب مزودة بجهاز تدفئة صغير.

ماذا يمكنها أن تشتري لرجل مثل مايكل برويستر؟

سترة جديدة من الجلد؟ لكن ثمنها باهظ جداً..بعض الاسطوانات لموسيقى الروك أند رول القديمة؟ لا بد أنه يملك مجموعة كبيرة منها..ربما يمكنها أن تهديه قسيمة لتعلّم الرقص.

لو كان حبيبها لملأت جواربه بهدايا صغيرة معبّرة، كأسطوانة أغانٍ

رومانسية، أو حلوى معدة في المنزل أو ملابس داخلية مضحكة..

وذكّرت نفسها بأنه ليس حبيبها وبأنه سبق وحذرها من نفسه. وحتى إن لم يفعل، لم تشأ أن يدخل رجل حياتها، لم تشأ الوقوع في الحب.

من السهل جداً على المرء أن ينسى أن كل شيء يبدأ من هنا: توق شديد لرؤية ابتسامته وعينيه وهما تتأملان كل شبر فيها...وسرعان ما ينمو هذا التوق ليتحوّل إلى أحاسيس أخرى، كتلك الرغبة في معرفة ما يمكن أن يحصل إن رقصا معاً مراراً وتكراراً..

و قد تنقلب الأمور رأساً على عقب في لحظة فتتحطم تلك المشاعر الهشة.

كان مايكل قد عاد إلى الطاولة المخصصة لتغليف الهدايا حيث حوّل علبة مربعة الشكل تضم أحجية إلى فيل متغضن مستخدماً لهذا أوراق التغليف.

سألها وقد بدا راضياً عن الفوضى التي سببها، وشديد الثقة في قدرته على الاهتمام بالأغراض الأكبر حجماً: «أين الدراجات؟ أريد تغليفها».

إنه خير مثال عن غرور الرجل. فأجابته: «لكن تغليف الدراجات صعب جداً ويتطلب كمية كبيرة من الورق. لذا، نكتفي بوضع عقدة عليها».

- لكن، ألا تسلمونها عشية عيد الميلاد؟

- بلى.

- لكن الطفل المسكين سيدرك على الفور ما هي هديته. أقصد القول إن عيد الميلاد يعني بالنسبة للطفل أن يبقى مستيقظاً وهو يتحرق شوقاً لمعرفة ما في داخل تلك الرزمة الكبيرة الثقيلة، متلهفاً لفتحها في الصباح التالي وتمزيق الورقة التي تغلفها..هذه هي روحية الميلاد..يريد أن يمزق الورقة ويزرع الفوضى في المكان والحماسة تتآكله لمعرفة ما في داخل تلك العلبة.

غير معقول.... هذا ما تكرهه كريستن فيه. فعلى الرغم من سعيه

الحثيث ليصبح قلبه من حديد، ما زال قادراً على معرفة ما يرغب فيه كل طفل صباح عيد الميلاد. .

كانت كريستن منهمكة في عملها وكأن حياتها تتوقف على تغليف علبة الشطرنج الموضوعة أمامها. وخطر لها أنه من الأفضل ألا ينظر إليها الآن. . لا يا كريستن، لا تمنحيه لذة النظر إليه لتتأكدي مما إذا كان يحدق فيك.

وارتأت أخيراً أن تلقي عليه نظرة خاطفة فتفاجأت لرؤيته يرفع لها حاجبيه. . .

أغمضت عينيها وعندما فتحتهما مجدداً، وجدته ينظر إليها بعينين ثاقبتين. بدا واضحاً أن الفرضيات تزاحمت في رأسه، فرضيات تحمل طابعاً شخصياً للغاية. ولا يهم ما إذا كانت صحيحة. وتصاعد الوهج إلى وجهها رافضاً أن يتوقف.

كان يجد لذة لا توصف في تعذيبها وجعلها تحمر خجلاً، وهو بارع في ذلك. . . كان هذا أكثر ما تكرهه فيه.

- حسناً، أعطني دراجة لعينة.

فأجابها موافقاً: «هذه روحية الميلاد فعلاً».

٥ - المهمة المستحيلة

خمسة وعشرون يوماً قبل عيد الميلاد.

لم يكن مايكل برويستر يملك أدنى فكرة عما ينتظره إذ تحول تغليف الهدايا إلى لعنة وجوده، فمنذ أن أصر على تغليف الدراجات، أُسندت إليه مهمة تغليف كافة الألعاب الغريبة الشكل والكبيرة الحجم.

كان في تلك اللحظة منهمكاً بتوضيب دراجة هوائية زهرية اللون، مزودة بعجلات إضافية ليتمكن الطفل من تعلم قيادتها بسهولة.

وبينما هو منهمك بعمله، خطر له أنه من النادر جداً جمع هذا العدد من الأشخاص المختلفين حول طاولة واحدة: عجائز وشبان، بيض وسود، ذكور وإناث، بعضهم سمين وبعضهم نحيل. . .

بدت كريستن متألقة في وسطهم. . . وقد حرصت خلال الأيام القليلة الماضية على أن تبدو في مظهر عادي، ما أثار ارتياحه. .

ارتدت في ذلك النهار سروالاً جميلاً من الجينز وسترة وغطاء للرأس وقميصاً ملائمة. كان واثقاً من أنها وضعت بعض أحمر الشفاه اللماع على شفتيها. .لم يكن واهماً على الإطلاق.

أبى مايكل أن يفكّر ملياً في معنى ذلك، ولكن كلما ازدادت معرفته بها، كلما استغرب ألا تكون مرتبطة؛ فهي فتاة ظريفة، وذكية وتملك حس فكاهة، من دون أن ننسى قوامها الرشيق الساحر. . . صحيح أنها تميل إلى الجدية في تصرفاتها وتهوى تلك التماثيل الصغيرة المربعة. . .

لمَ ينسَ مايكل ما قالته لولو ذلك اليوم فقام بعدها ببحث عن مجموعة «لو ليتل» مستعيناً بالانترنيت. لقد انفرد لبعض الوقت بلولو وعرف منها الخبر اليقين كما تبرع بعشرين دولار مساهمة منه في الهدية التي سيقدمها المتطوعون لكريستن. وعلى الرغم من تأكيد لولو على رغبة

www.elromancia.com

المتطوعين في أن يشتروا لها قطعة من مجموعة «ليتل»، أثار إصرار كريستن على ألا يعرف مايكل ما تريده فضوله.

وفي غضون وقت قصير، نجح في التعرف على عالم ليتل كله، عالم سميدلي، صاحب التعبير المتملق الذي ذكّره نحوله الشديد بالرسوم المتحركة التافهة، وهاريت التي لم يفارق ذلك التعبير المبتذل الممل وجهها منذ العام ١٩٥٧.

أمل مايكل في سره أن يكون سبب اهتمام كريستن بهذه التماثيل هو عدم قدرتها على شراء جرو. لكن في اليوم التالي، لاحظ وجود أحد هذه التماثيل في مكتبها، والأسوأ هو أنها تحتفظ بكتيّب في مكتبها تضعه جانباً كلما رأته في الجوار.

لكن على الرغم من هذه الغلطة الفظيعة، ومن تعلقها بتلك الصور غير الواقعية والمثالية لما ينبغي أن يكون عليه الحب، لم يجد جواباً لسؤاله.. لمَ فتاة مثلها وحيدة؟

وحيدة...

نظر من حوله من جديد فأدرك أن الوحدة هي القاسم المشترك بين المتطوعين.

كانت لولو منفصلة عن زوجها، والسيدة هندرسون أرملة منذ فترة وجيزة. أما السيدة جاكوبز ففقدت زوجها منذ فترة طويلة بينما لم يتزوج السيد تامبل أبداً.

كان يعلم أن كل واحد منهم أعد خطة لليوم المنتظر، برفقة أفراد العائلة والأصدقاء، إلا أن الجميع يبحث مثله عن وسيلة لتجاوز هذه المرحلة بأقل ضرر؛ فكل فرد في هذه الغرفة تناسى همومه الشخصية وراح يبحث عن شخص يعاني من العوز، شخص يتألم أكثر منه.

هنا، خلف جدران جمعية بابا نويل السرية، رأت عائلة جديدة النور، عائلة احتضنته وفتحت له ذراعيها.

أحس مايكل بنوع من الإلهام ينزل عليه، وكأنه مكلّف بمهمة أعظم من تنمية العضلات المفتولة، وأعظم من تغليف الرزم الضخمة، وأعظم

من مهمة البحث عن جني... مهمة أعظم من مسألة شفائه.

إنها أعظم من النظر إلى شفتي كريستن والتفكير في حيل جديدة ومبتكرة لاختلاس النظر إليها ورؤية حمرة خديها.

ولكن عندما تذكر حمرة خديها، قرر أن يحدق في شفتيها المطليتين بأحمر شفاه لامع شفاف إلى أن تلاحظ نظراته المتفحصة..

ونال مايكل مبتغاه إذ صرخت قائلة: «لقد تشققت».

لكن لم يظهر على وجهها أي أثر للحمرة.

سألها وهو مقطّب لتدرك إلى أي حد هو جادّ: «إن قُدر لك أن تحصلي على كل ما ترغبين فيه في عيد الميلاد، فماذا تختارين؟»

- أتمنى أن يستلم كل طفل في هذا الحي هديته وأن أتمكن من العثور على جني...

بدت مصممة على تجاهل عبوس وجهه وتفادي قدر المستطاع التطرق إلى الأمور الشخصية.

- لم أكن أطرح سؤالاً فلسفياً بل قصدت الأمور المادية..

- فهمت.

وإذ أرادت أن تخفف من حدة كلامها، ابتسمت له ابتسامة عريضة، ابتسامة تحمل الكثير من الجرأة والأذى....

تجاهل مايكل كريستن، ووجه سؤاله للسيدة هاندرسون قائلاً: «ماذا عنك سيدتي؟»

فكرت السيدة هاندرسون ملياً قبل أن تجيبه: «أتعلم ما أريده في عيد الميلاد؟ أريد شوكولا ألمانية. قبل زواجنا، أرسل لي إيدي بعضاً منها خلال إقامته هناك. واعتاد في كل سنة أن يشتري لي القليل منها.. إنها تأتي في علبة رقيقة كتب عليها «شكراً» باللغة الفرنسية».

وتابعت تقول: «تحمل الشوكولا الألمانية اسماً فرنسياً وأقسم أنني كنت أستيقظ أحياناً في الليل وأنا أتحرق شوقاً لتذوق طعمها.

خيم صمت مطبق على الجميع خرقته لولو قائلة: «من جهتي، أتمنى أن أحصل على جهاز لتدليك القدمين وأصابع الرجلين. ألا يبدو ذلك

أشبه بالجنة؟ لا أظن أن هذا الجهاز سيثير المتاعب بقدر الرجل».

وانفجرت ضاحكة وشاركتها كريستن الضحك بحماسة لا تتوافق مع الفكرة التي أوحى بها تعليقها..

عندما توقفتا عن الضحك، بدأت صورة مهمته تتوضح وكأن شعاعاً براقاً يضاهي بريق النجمة التي تبعها الرجل الحكيم، قد سُلط عليها..

لقد قاده القدر إلى هنا ليكون بابا نويل العاملين في هذه الجمعية؛ كان عليه أن يؤمّن لهؤلاء المتطوعين الطيبي القلب، الهدايا التي يحلمون بها في عيد الميلاد.

يمكنه أن يشتري علبة شوكولا للسيدة هاندرسون، ويُرسل لولو لتمضية عطلة نهاية الأسبوع في أفضل مركز سبا في ميتشيغن.. كلا، يمكنه أن يرسلها إلى مركز العناية المترف في ميتشيغن... كانت والدته تحتفظ بكتيب عنه، ويمكنه العثور عليه..

أعجبته الفكرة كثيراً: سيرسل لولو إلى المكان الذي لطالما حلمت به والدته من دون أن تأتي على ذكره أبداً.

كانت السيدة جاكوبز تتمنى أن يعود ابنها من الخارج برفقة حفيدها المنتظر.. حفظ مايكل كلام كل واحدة منهنّ وأحس بالدفء يغمره وكأن أحدهم حرص على ضبط الحرارة باستمرار في المكان...

لأسابيع قليلة خلت، كان رجلاً لا يشعر بالحرارة. وها هو الآن يشعر برغبة في تمزيق قميصه من شدة الحر في داخله..

سألها أخيراً بعد أن أفضت إليه النساء الثلاث بما يحلمنّ به في عيد الميلاد: «ماذا عنك يا كريستن؟»

- سبق وقلت لك إنني أريد جنياً.

- إنني جاد في ما أقوله.

أجابته بحدة: «حسناً.. أريد فارساً راقصاً يرتدي تنورة زهرية اللون».

انفجر الجميع بالضحك باستثنائه هو. بدا واضحاً أنها تحاول المراوغة لأنها لا تريد أن تفصح لأحد عما تريده في عيد الميلاد.

- أعلم أنك تحبين مجموعة «لو ليتل» من التماثيل الصغيرة لكن

يؤسفني أن أقول لك إنها سخيفة.

- كيف عرفت هذا؟

- سمعت ما قالته لولو في تلك الليلة قبل أن تسكتيها وتهدديها بقطع رأسها... أهذه هي روحية الميلاد؟

حملقت فيه غاضبة ولكن من دون أن تتفوه بكلمة..

- رأيت واحداً منها في مكتبك.. فضلاً عن الكتيّب.

ليتها تخبره ما هي القطعة المفضلة لديها بدلاً من الجلوس أمامه وفي عينيها تلك النظرة العنيدة... ربما كان من الأفضل لمايكل أن يرضي غرورها ويشتري لها ما ترغب فيه متغاضياً عن ميوله الشخصية...

هذا جزء من الإلهام الذي نزل عليه: فالميلاد الحقيقي يعني أن يتناسى المرء رغباته الشخصية في محاولة منه لإرضاء رغبات الآخر؛ وعاد بالذاكرة إلى الماضي يوم قرر بالتواطؤ مع أخيه براين أن يشتريا لوالدتهما بندقية من عيار ٢٢ مطلية بالفضة.

لكن كريستن بدت مصممة على جعل مهمته مستحيلة، فقالت له بشيء من الحدة: «لا أريد شيئاً منك».

ربما كان يفترض به أن يشعر بالإهانة لكن عندما رفع نظره إليها تساءل في سره ما إذا كانت ترغب في أي شيء على الإطلاق. لعلها تتخذ من مجموعة التماثيل كحجة تتذرع بها لأنه ليس لديها ما تفكر فيه.

يا لسخرية القدر! فهذه المرأة الشابة كانت قادرة على العطاء لكن من دون أن تأخذ أي شيء في المقابل.

في تلك اللحظة، قرر مايكل أن ينطلق في رحلة لسبر أغوار رغباتها الدفينة وتحقيق كل ما تريده في عيد الميلاد.

لذا، تجاهل ما قالته قبل قليل وقال لها موبخاً: «هيا، اعترفي. لا شك في أنك ترغبين في شيء أكثر أهمية من تلك التماثيل الصغيرة».

وإذ لاحظ أن تعليقه لم يجعلها تضحك، شعر بالإحباط من محاولته البائسة لاستدراجها وجعلها تتكلم. وتبين له في تلك اللحظة مدى تعلقها بتلك التماثيل، وأنب نفسه لأنه بدأ رحلته بالاستهزاء بها.

ألم يكن حرياً به أن يشتري لها قطعتين من تلك المجموعة اللعينة وينتهي من المسألة؟

وفي الأيام القليلة التالية، بدا له أنها مصممة على ألا تخبره شيئاً عن نفسها، على الرغم من مساعيه الحثيثة الفائقة الرقة لجعلها تتكلم..

- حسناً يا كريستن..هل فكرت في هدية عيد الميلاد؟

- لم يغمض لي جفن طوال الليل وأنا أفكر في الموضوع.

رماها بنظرة ساخطة وقد أدرك أنها تنوي أن ترد له الصاع صاعين وتجعله يتذوق معنى الاستهزاء بالآخر.

- إذن؟

أجابته بنبرة مزعجة: «السلام في العالم».

- هل تنوين المشاركة في مسابقة ملكة جمال أميركا؟

انفجرت ضاحكة وأجابته قائلة: «نعم...الفتاة الأبعد ما يكون عن الفوز بهذا اللقب».

أجابها متمتماً: «وهذا مؤسف أيضاً».

- صحيح.

قال لها بعناد: «إنني جاد في ما أقوله».

سألها وقد ارتأى أن يسلك مساراً آخر: «ما هي الهوايات التي تمارسينها بعيداً عن هذا المكان؟»

لم يكن سؤاله حاذقاً بما فيه الكفاية فابتسمت له كريستن ابتسامة عريضة وكأنها تستعد لتوجيه ضربة جديدة إليه.

- أقرأ الكتب..الكتب.

- اسمعي..إن كنت أعمل نجاراً فهذا لا يعني أنني أحمق.

بدت مفعمة بالحماسة وهي ترد له الكيل كيلين كلما حاول إغاظتها، لكنها أفسدت الأمور بارتباكها.

- آسفة، لم أقصد ذلك.

جيد..عليه أن يستغل هذه اللحظة المؤثرة.

- يمكنني أن أسامحك إن أخبرتني...

خطر له للحظة من اللحظات أنه نجح في إحراز نقطة لصالحه، إلا أنها سارعت إلى الرد: «قل لي أولاً...ما الذي تريده أنت في عيد الميلاد؟»

فاجأه سؤالها.. ما الذي يريده في عيد الميلاد؟ لم يكن يريد شيئاً...فهو رجل ثري ويمكنه الحصول على كل ما يرغب فيه. ومع ذلك، لم يكن قادراً على أن يشتري ما يرغب فيه فقلبه مشتاق إلى عائلته، وعقله مثقل بالذكريات الجميلة: من شجرة عيد الميلاد الضخمة التي كانت والدته تصر على تزيينها سنوياً إلى الهدايا السخيفة التي كان أخوه يشتريها له، وحماسة والده للمفاجأة التي يعدّها لزوجته.

وعلى الرغم من أن مايكل لم يكن يعي ذلك حينها، إلا أنّ هدية والدته شكلت محور صباح الميلاد إذ كان والده ينتظر ريثما ينتهي الجميع من فتح هداياه ليسلم زوجته هديتها على طريقته الخاصة..

- افتحيها...افتحيها يا أيلين.

وكانت نبرة صوته تفضح مدى قلقه من ألا يكون قد أحسن الاختيار. أدرك مايكل الآن طبعاً أنها كانت من النوع الذي يبدو أنه يحب البنادق...فالقرطان الكبيران المرصعان بالزمرد اللذين حصلت عليهما لم يعنيا لها الكثير. وينطبق هذا على عقد الماس الذي تلقته بعد ازدياد محصول الصيد.

وتراءت له صورة والدته وهي تصرخ مصعوقة والدموع تترقرق في عينيها المفعمتين بالحنان...

- ما الأمر يا مايكل؟

عاد إلى أرض الواقع ليجد عينين واسعتين تنظران إليه بقلق...

أحاطت كريستن معصمه بيدها وكأنها تذكّره كم يعشق لمستها ويحن إلى الرقص معها من جديد.

- لا شيء.

كان عليه أن يهرب من تلك النظرة التي رآها في عينيها بأي ثمن.

- ما كان سؤالك؟

حاول أن يراوغ بعض الشيء ليتمكّن من استعادة رباطة جأشه.

- ما الذي تريده في عيد الميلاد؟

كانت تنظر إليه بحذر من دون أن تبعد يدها عن معصمها. كيف يعقل أن تنبعث من هذه اليد الدقيقة هذه القوة كلها؟ كيف يُعقل أن تُؤجج هذه اللمسة البسيطة نيران الشوق في داخله؟

أجابها في محاولة منه لإغاظتها: «أريد امرأة جميلة».

غير أنها لم تفعل بل حدقت فيه قائلة من دون أن تبعد يدها عن معصمه: «سيجد بابا نويل صعوبة في وضعها في جواربك».

- يمكنه تركها عند عتبة الباب. حان الآن دورك.

- إن كان القمر مصنوعاً من الجبنة الفرنسية، فأريد قطعة منه.

- لست أدري لما تثيرين كل هذه المتاعب للرد على سؤال بسيط.

- وأنت أيضاً.

- جواب. واحد. بسيط

أجابته برقة: «أنا امرأة معقدة».

- لست أمزح.

حسناً، لعل دور بابا نويل الذي تلعبه يفرض عليها أن تعبث قليلاً... لم يكن أمامه سوى أن يتسلل إلى مكتبها في المرة المقبلة التي تخرج فيها للتبضّع...

وتماماً كما توقع. إنه كتيّب مجموعة «لو ليتل» ما ترميه بسرعة في الدرج كلما دنا من مكتبها. كان الأمر أسوأ مما توقع فالكتيّب مخصص للهواة، وفيه صفحة بالية تعود لتمثال «الفارس ذو الدرع اللامع»... تمثال هو الأسوأ في مجموعة ليتل بالنسبة إلى مايكل.

بعد أن تمكن بصعوبة من قراءة المعلومات المدونة على الورقة البالية، تبين له أن هذا التمثال متوفر بنسخ محدودة، ما يعني أن على الهواة أن يسارعوا إلى شراء هذه القطع. شعر مايكل بالتململ وقد أدرك أن الأمر ليس مجرد إعلان وأن هذه النسخ ستنفد من الأسواق فور طرحها.

فتح الصفحة الأولى من الكتيّب للتحقق من التاريخ. لقد فات الأوان وبات من المستحيل العثور على أي نسخة منه.

شعر مايكل بالمرارة لأن ألفي نسخة فقط من هذا التمثال ستباع في العالم كله. شعر بالمرارة لأن رغباتها كلها صعبة المنال، بدءاً من الجني وصولاً إلى هذا..

راهن مايكل على أنه من الصعب العثور على رجل واحد يهوى جمع هذه التماثيل فالرجال لا يفكرون بهذه الطريقة. هز رأسه ساخراً. «فارس بدرع لامع»... ما هذه السخافات!

لا عجب أنها أبت أن تطلعه على ما تريده في عيد الميلاد فالأمر يسبب لها الإحراج. ومع ذلك، بات بإمكانه القول إنه تمكن من إكمال لائحة هدايا الميلاد. فقد عرف ما ترغب في الحصول عليه وما من شيء مستحيل بالنسبة إليه... غمره شعور بالتفاؤل وحتى بالسعادة..

مد مايكل يده ليقفل درج مكتبها فلفت انتباهه شيء آخر. التقط ببطء ملفاً كُتب عليه «الأحلام المستحيلة»... أهي أحلام كريستن المستحيلة؟

فتح الملف على مضض ووجد فيه طلبات مستحيلة فعلاً...

صرخت كريستن ساخطة: «ما الذي تفعله هنا؟»

لم تكن واثقة ما الذي دفعها إلى طرح هذا السؤال وقد بدا واضحاً أن مايكل يجلس مسترخياً خلف مكتبها يقلب في أوراقها. كيف يعقل أن يثير هذا الرجل ارتباكها في حين أنه هو المخطئ؟

سألها: «هل أنت محطمة الفؤاد يا كريستن؟».

حبست كريستن أنفاسها. ما الذي عثر عليه في مكتبها وساعده على اكتشاف أسرارها الدفينة؟

اجل، كانت محطمة الفؤاد. يمكنه أن يلح عليها إلى ما لا نهاية ليعرف ما تريده في عيد الميلاد، لكنها قررت الاحتفاظ بالحقيقة لنفسها فما تتمناه من صميم قلبها صعب المنال وهي تدرك ذلك.

من المؤكد أنها ترغب في الحصول على تمثال «الفارس ذو الدرع اللامع» لأنه قد ينسيها ما ترغب فيه حقاً لأسبوع أو أسبوعين...

كانت تتمنى من صميم قلبها أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل أن يصبح ابن أختها مقعداً، وقبل أن يتخلى كينت عن عائلته بتلك الطريقة البشعة.. كانت تحلم بأن تعود المياه إلى مجاريها بين بيكي وكينت... فعلى الرغم من زوال الحب الذي جمع والديها، وعلى الرغم من خداع جايمس لها وانفصال بيكي وكينت، تمنت في سرها ألا تفقد إيمانها بالحياة.

قالت له بحزم: «لا أحبذ وجودك في مكتبي وتدخلك في شؤوني».

- لا داعي للانفعال وكأنني فتحت درج ملابسك الداخلية.

كان يتأملها بإمعان ودقة وتمنت لو تستطيع أن تهرب مما قرأته في عينيه.

لن يرتاح باله قبل أن يعرف كل شيء عنها، ويكتشف حقائق أبت الاعتراف بها حتى لنفسها...

قال لها فجأة: «لا أحد يتألم سواك».

توقف قلبها عن الخفقان. كان على علم بالأمر..

- وهذه هي السبب.. رباه! من الصعب تحقيق هذه الأمنيات.

كانت نظراته توحي بأنه اكتشف سرها، السر الذي أخفته عن العالم أجمع.. فعلى الرغم من أنها محاطة بأشخاص يهتمون لأمرها، وعلى الرغم من أنها تزرع الفرح في عالم مليء بالأسى، كانت أضعف من أن تتحمل موسم الأعياد..

فقد تعرض ابن أختها «غرانت» لحادث سير في عيد الميلاد..

ورفع مايكل الملف عالياً فتنفست كريستن الصعداء وقد أدركت أنه لم يكتشف أسرارها الشخصية بل اكتفى برفع النقاب عن الأحلام المستحيلة..

عندما خيل إليها في لحظة من اللحظات أنه عرف الحقيقة كلها، هل شعرت بالأسف أم بالارتياح لأن أعباءها لم تعد ثقيلة الحمل؟ ولأنها لن تبقى وحيدة مع حلمها الأبدي بأن تسير الأمور على خير ما يرام، هذا الحلم الذي يستحيل تحقيقه؟

قرأ مايكل بصوت عالٍ: «عزيزي بابا نويل، أصيب أخي برصاصة في رأسه ويحتاج إلى دماغ جديد. مع حبي، جيوف».

قالت له هامسة: «عرفت الآن سبب اليأس الذي يتملكني في فترة الميلاد».

أحست بأنها تكذب كذبة مريعة لاسيما وأن قدرها بات مرتبطاً بقدر أولئك الأطفال وأحلامهم المستحيلة.

هذه هي الطريقة التي كانت تعتمدها في محاولة منها لإصلاح الأمور. لكن في اللحظات الأكثر صدقاً، كانت تعي أن محاولاتها كلها مهددة بالفشل؛ وعلى الرغم من ذلك، لم تشأ أن تفصح عن مكنونات قلبها لمايكل. وقد لا تفعل أبداً. لعله يظن نفسه قادراً على تحقيق المستحيل ولكن لا أحد يستطيع أن يعود بالزمن إلى الوراء.

قرأ الرسالة التالية: «عزيزي بابا نويل، توفيت والدتي السنة الماضية: هل هي في الجنة؟».

أطلق شتيمة خافتة...

- لا تفعل يا مايكل.

حملق فيها غاضباً وتابع قراءة الرسائل الواحدة تلو الأخرى..

- لحسن الحظ أن الأحلام الخاصة بزيارة ديزني لاند ومقابلة نجوم أبطال الرياضة ممكنة نوعاً ما. ما الذي ستفعله في هذا الشأن يا كريستن؟ نحن؟؟

وإذ ارتأت أن تلتزم الصمت، استطرد قائلاً: «لا يجوز أن ندع هؤلاء الأطفال يظنون أن أحلامهم مستحيلة».

حمل استعماله لصيغة الجمع شيئاً من الإغراء..

- لا اصدق أن أحدهم طلب الذهاب إلى الجنة لرؤية والدته.

حسناً، عليه أن يتقبل أن بعض الأحلام مستحيلة. هذه هي الحياة!

- إنه طلب صعب جداً.

- ولا يمكننا أن نرسل أحداً إلى ديزني لاند.

سألها بعناد: «لمَ لا؟»

- إن فعلنا يا مايكل فسينقلب العالم رأساً على عقب. وفي السنة المقبلة، ستنهال علينا طلبات السفر إلى ديزني لاند. وإن تمكنا من تحقيق رغبة طفل واحد، فسنخيب آمال الآلاف سواه..

- تحملين أعباء العالم كله على كتفيك، أليس كذلك؟

كم كانت تكره هذا! كانت تكره طريقته في جعلها تدرك أن أحلامها المستحيلة ليست بعيدة المنال، وأن الحب موجود فعلاً مع أنها رأت أدلة كثيرة تؤكد أنه قابل للانهيار بلمح البصر..

ولم تكن على استعداد أبداً لتحمل هذه المشاعر. لم تشأ أن تؤمن بأن الأشياء المستحيلة يمكن أن تتحقق.. والأمل هو أخطر المشاعر على الإطلاق..

صحيح أنها رحبت بمايكل في عالمها، وعلّمته كيف يتعامل مع هذه الأزمة، واستقبلته كفرد من عائلتها الصغيرة في المكان الذي يشعرها بالأمان إلا أنها نادمة على ما فعلته لأنها فقدت الإحساس بالأمان مع وجوده قربها. أرادت أن تصلح عالمه لكنها لم تكن تتوقع أن يشكل هذا خطراً على عالمها..

كان يثير فيها توقاً إلى أمور أبت أن تؤمن بها، من ذراعين قويتين تحتضنانها في الليل، إلى شخص تؤمن به ويشاركها همومها..

كان يثير في داخلها رغبة ملحة في أمور خيل إليها أنها رمتها جانباً، كالحاجة إلى الإحساس بالأمان، والحماية والحب.. الحاجة إلى استعادة ثقتها بالعالم، والرجال وحتى بنفسها..

وتذكرت في تلك اللحظة الغضب الذي تملكها عندما دخلت مكتبها ووجدته مسترخياً على كرسيها. لكن عندما رأت التعبير المرتسم على وجهه وهو يقرأ تلك الرسائل، كبحت غضبها.. كيف يقدر على قلب الأمور رأساً على عقب؟ يبدو جلياً أنها وقعت تحت تأثير سحره...

فنظرة العزم التي قرأتها في عينيه أكدت لها أن مايكل برويستر يأبى أن يتقبل أن في العالم ما يُسمى مستحيل.

٦ - الحلم المستحيل

ثمانية عشر يوماً قبل حلول عيد الميلاد.....

- بقي أمر أخير قبل أن نقفل. أريد أن أريك شيئاً يا كريستي.

بذل مايكل جهده ليتكلم بنبرة عادية لكن المشاعر التي تضاربت في داخله جعلته يقدّر ما كان يشعر به والده صبيحة كل عيد ميلاد حين يحتفظ بمفاجأة العيد الخاصة للحظة الأخيرة. صحيح أنها ليست المفاجأة التي يعدها لها في عيد الميلاد لكنها مجرد خطوة تمهيدية لها....

- نقفل؟ لا أريد أن أقفل الآن. أريد البقاء هنا...

- لكن الساعة قاربت منتصف الليل

دارت حول المركبة قائلة: «إنها الأجمل على الإطلاق».

كلمات الإطراء هذه كانت كافية لجعل أي رجل يشعر بالغرور. عند رؤيته المركبة القديمة للمرة الأولى، تملكه الرعب وتساءل في سره كيف يمكن ألا يتعرّض المرء للأذى فيها؟

ولم يجد أمامه سبيلاً سوى أن يفككها ويعيد بناءها من جديد بمساعدة عدد كبير من الأيدي. بدت المركبة الجديدة أشبه بتحفة فنية: بدءاً من مقعد السائق المخملي حيث يمكن أن يستريح بابا نويل، وصولاً إلى الأرضية المكسوة بالسجاد ليتمكّن الجني في حال العثور على شخص مناسب للعب هذا الدور، من نقل الهدايا، مروراً بالصناديق الضخمة المطلية بألوان زاهية لتوضيب هدايا الأطفال فيها.

غادر المتطوعون كلهم المكان وعادوا إلى منازلهم بعد أن عملوا لساعات طويلة على ترتيب المركبة. من المتوقع أن يسجلوا رقماً قياسياً جديداً هذه السنة فقد تمكنوا من تحقيق أماني أكثر من ألف ومئتي طفل.

في الواقع، كان الفرح الذي غمر قلب مايكل بعد أن وضع اللمسات الأخيرة على المركبة لا يوصف، ويشكّل ما هو على وشك أن يُقدمه لها أعظم إنجاز له في جمعية بابا نويل السرية حتى الساعة.

فمع حلول ساعات المساء الأولى، أحضر صندوقاً كبيراً جداً ووضعه قرب الباب. وها هو الآن يضعه أمامها، ويتراجع خطوة إلى الخلف ليتسنى لها أن تلقي نظرة على محتواه.

سألته: «ما هذا؟»

- الحلم المستحيل رقم اثني عشر. . .أماندا واتسون، ست سنوات.

- ديزني لاند؟

ورمقته بنظرة مشككة، نظرة ما لبثت أن تلاشت وهي تفتح العلبة لتحل محلها تلك التي انتظرها طويلاً أو ربما عاش ليراها! إذ سرعان ما انفرجت أساريرها وأشرق النور من تينك العينين اللتين خُلقتا لتضحكا لكن القدر لم يفسح أمامهما المجال لتفعلا ذلك.

أعلن بنبرة رضا: «ديزني لاند. . .ديزني لاند في صندوق».

قالت لاهثة: «انظر إلى ورق الجدران».

على الرغم من لحظات الإحباط التي مر بها خلال الأيام الثلاثة التي أمضاها في البحث عن هذه الهدية المميزة، إلا أنه أدرك من التعابير التي ارتسمت على وجهها أن الأمر استحق العناء. كان ورق الجدران يحاكي في تفاصيله قصر الأميرة النائمة في ديزني لاند. ولم ينسَ مايكل أغطية السرير، والوسائد والغطاء الذي حيكت عليه شخصيات ديزني المحببة، فضلاً عن مجموعة من الدمى المصنوعة من القماش والتي تجسد بدورها الشخصيات الأكثر شهرة.

أما الجزء الأفضل والأهم فاحتفظ به للنهاية. كان يتأمل وجه كريستن بحنان وهي تخرج من أسفل الصندوق زيّ الأميرة: فستان من التفتا والساتان مزين بشرائط، وتاج مرصع بالجواهر فضلاً عن حذاء خفيف مصنوع من البلاستيك الشفاف يمكن لمخيلة الطفلة الخصبة أن تحوّله إلى

حذاء من زجاج.

حملت الفستان بين يديها وقالت له وقد اغرورقت عيناها بالدموع: «كيف عرفت أن الفتيات الصغيرات يعشقنّ هذه الأشياء؟»

- يبدو أن بابا نويل يهمس في أذني.

بدا متفاجئاً مثلها تماماً، من الوحي الذي أنزل عليه لتنفيذ المهام المتعلقة بالأحلام المستحيلة.

تنهدت كريستن وظهرت نظرة القلق في عينيها من جديد.

- هذا كثير لطفل واحد. .

وأضافت على مضض: «علينا أن نقسّم الهدايا. .فهذه الأغراض تكفي لأكثر من. . .».

قاطعها قائلاً بحزم: «على جثتي».

اختفى القلق من عينيها وانفجرت ضاحكة وقالت: «أتخيل أنك كنت متحمساً جداً عند اختيارك هذا الفستان، أليس كذلك؟».

- عندما حملت التاج، نظرت من حولي فوجدت النساء في المتجر يبتسمنّ لي وكأنني أرق إنسان على الأرض.

- التاج؟

- لم تفارق رسوم أماندا التي تعج بالقصور وشخصيات الرسوم المتحركة وسندريلا، خيالي لحظة واحدة. ومن خلال تركيزي على الفتاة، تمكنت من اجتياز هذه التجربة بسلام. لا يجوز أن نخدع الفتاة التي أنقذت حياتي، ألا توافقيني الرأي؟

- حسناً يا مايكل، لك ما تشاء.

أقرت كريستن بانتصاره بكل طيبة خاطر. يُخطئ من يظن أن حصول أماندا على كل الأغراض يعني أن الأطفال الآخرين لن ينالوا نصيبهم. . كلا. .لن يسمح بحصول هذا.

ضحكت كريستن من جديد، فأحس بأن كل لحظة عذاب ذاقها في ذلك المتجر المخصص للفتيات الصغيرات استحقت العناء.

قالت له وهي تلوح بالفستان: «ليتني كنت موجودة أثناء شرائك الفستان».

- أجل.. أنت وعشر نساء أخريات... شعرت بالكثير من الحرج لأن شخصية سندريلا ليست مألوفة بالنسبة إلي. لكن المهام الأخرى كانت أكثر سهولة.

ولتحقيق الحلم المستحيل الثالث، حيث تمنى أحد الصبية أن يقابل أحد أهم لاعبي كرة السلة، أجرى مايكل بحثاً على الانترنيت ونجح في الحصول على صورة موقعة منه. بعدئذ، قصد أحد المتاجر واشترى قميصاً قطنياً خاصاً بالفريق يحمل الرقم ثلاثة وعشرين.

لكن ما حصل له كان غاية في الغرابة. أراد مايكل أن يخفف عن كريستن عبء ملف الأحلام المستحيلة الذي يسبب لها الحسرة، وهو يدرك تمام الإدراك أن الأمر لن يؤثر فيه لأن قلبه مات من زمن بعيد. وكم كانت دهشته عظيمة حين أدرك مدى تعلقه بملف الأحلام المستحيلة! فمن خلال سعيه لتحقيق الأماني الصعبة، أحس بالحياة تدب في قلبه من جديد كما لم يشعر منذ انتشلوه من المياه..

في الحقيقة، كانت بعض الأحلام مستحيلة فعلاً فليس بمقدوره أن يؤمّن دماغاً جديداً لشقيق جيوف أو أن يعيد أماً من الجنة. لكنه يستطيع أن يساعد ولو قليلاً: فشقيق جيوف سيخضع لعلاج مكثف كما أن متجر الحلوى وافق على تسليم البسكويت المغطى برقائق الشوكولا مرة في الأسبوع للطفل الذي فقد والدته.

تمكّن مايكل من توقّع التعبير الذي يرتسم إلى وجه كريستن كلما شطب أمنية أخرى من اللائحة بعد أن يجد لها حلاً. وكان يشعر بنفسه وكأنه عملاق لا يقهر، ويشعر برجولته كما لم يشعر بها يوماً.

- علينا أن ننصرف يا مايكل.. تجاوزت الساعة الثانية عشرة.

أقر في سره بأنها على حق لكنه لا يرغب في ترك هذا المكان أو تركها.

- لكن المعجزات تحصل في هذه الساعة بالذات.. أراهن بأن هذا الحذاء الخفيف يناسب مقاس قدمك.

شعرت كريستن بغصة في حلقها وراحت تنظر من حولها مرعوبة وكأنها أرنب صغير في مواجهة مجموعة من كلاب الصيد الشرسة.

- كلا، أخشى أن القدر كتب لي أن العب دور الأخت القبيحة.

وتمنى في سره لو يستطيع أن يطرد هذه الفكرة من رأسها ويجعلها تقدّر جمالها الخارجي. إلا أنه يعلم أنه لن يتمكّن من أن يثبت لها العكس إلا بطريقة واحدة، ما سيزيد هذا الموقف تعقيداً.

وارتأى أن يتصرف بشهامة ففتح الباب الأمامي لها وغيّر الحديث قائلاً:

- وجدت حلاً للحلم المستحيل رقم ستة...

لكن وقبل أن يتسنى له الكلام، حملت كريستن بعض الثلج في يدها وكورته ورشقته به.

وبدأت حرب التراشق بكرات الثلج فراحا يلاحقان بعضهما البعض في الشارع المقفر... فاجأته كريستن بقوتها رغم أن مظهرها يوحي بأنها لم تمارس لعبة كرة السلة قط في حياتها.

دار مايكل حول نفسه وصوب كرته نحوه، إلا أنها أخذته على حين غرة وأصابته إصابة مباشرة في وجهه قبل أن يتمكن من رمي الكرة. مسح آثار الثلج عن وجهه وسدد نحوها ضربة قوية لكن الآنسة كريستن موريسون تمكّنت من تفاديها بمهارة.

تردد صوت ضحكاتها في الشوارع الخالية من الناس.. لم تكن طبقة الثلج السميكة قد تلطخت بعد بالوحل من أقدام المارة وعجلات السيارات فأضفى الثلج على ذلك الشارع الكئيب لمسة بيضاء براقة وساحرة. كان واثقاً من أن شعورها سيكون مماثلاً إذا ما عانقها. لكن ماذا عن شعوره؟ هل هو مستعد للانقلاب الذي سيحدثه فيه عناقها؟

مع بزوغ شمس كل يوم جديد، كانا يتقربان من بعضهما البعض أكثر

فأكثر ليشكلا معاً فريقاً متضامناً، هدفه الأساسي زرع بهجة الميلاد في تلك الشوارع العنيفة.

وعندما تذكّر أعمال العنف التي تشهدها الشوارع، أدرك أنها ابتعدت قليلاً عن حمايته. ففي ليالٍ كهذه، اعتاد مدمنو المخدرات والكحول البحث عن ملاذ لهم في المداخل..

ناداها قائلاً: «اسمعي..عودي إلى هنا. ستعقد هدنة».

نظرت إليه من فوق كتفها فرمى كرة الثلج التي كان يحملها في يده على الأرض ورفع يديه مستسلماً.

مع ارتفاع عدد الهدايا إلى الألف ومئتي هدية، ومرور الأيام بسرعة البرق، بلغ حجم الأعمال حداً مستحيلاً، فوجدت كريستن نفسها مرغمة على البقاء في المكتب حتى ساعة متأخرة من الليل. ولم يكن مايكل يفارقها قبل أن يتأكد من أنها في أمان.

عبرت الشارع متجهة نحوه ويداها في جيبي سروالها وقد تجمدتا من البرد. ومالت بذقنها نحو الأمام والتقطت ندف الثلج بلسانها.

بدا واضحاً أن أملها خاب عند إعلانه الهدنة..من أين تستمد هذه الطاقة كلها؟ فهما يعملان ست عشرة ساعة في اليوم على الأقل.

اقترب منها فلاقاها في منتصف الطريق وأخرج يديها المتجمدتين من جيبي سروالها وأمسك بهما وراح ينفخ عليهما ليبعث فيهما الدفء.

لم يكن مايكل الذي عهدته رقيقاً إلى هذا الحد، لكن مايكل الذي عهدته كان حاضراً في تلك اللحظة ليلاحظ التعبير البادي على وجهها ويحاول استغلاله.

سألها من دون أن يتوقف عن النفخ على يديها: «ما الذي تريدينه في عيد الميلاد؟».

وتجلت له الحقيقة فجأة في ظلمة الليل الحالكة، وأدرك في تلك اللحظة أنه وقع في غرامها. إلا أن هذه الفكرة لم تثر الرعب في نفسه أو تجعله يلوذ بالفرار..

راح مايكل يفكّر وقد غمره سكون داخلي وهو ينفخ على يديها متأملاً عينيها الرماديتين اللتين أصبحتا مألوفتين جداً.

- يمكنني الاكتفاء بما تفعله الآن.

ثم راحت تغني بصوت مريع: «ليلة عيد..ليلة عيد».

- أنا جاد في ما أقوله.

- وأنا أيضاً.

- هيا يا كريستن، أخبريني.

وتنبه في تلك اللحظة إلى أنه يتوق إلى سماعها تقول ما يوحي باستعدادها لاحتضان تلك المشاعر الجميلة التي تنمو بينهما، شيء يوحي بأنها يمكن أن تأتمنه على ذاتها، حتى وإن كانت ترغب بشدة في الحصول على تمثال «الفارس ذو الدرع اللامع».

اكتشف مايكل أن البحث عن هذا التمثال يضاهي في صعوبته البحث عن الجني، فالهواة يتحولون إلى أشخاص سيئي الطبع إذا ما حاول أحدهم المس بمجموعتهم.

قالت له بنبرة امتزج فيها الأمل بالحزن: «يوم واحد..جلّ ما نقدمه لهم هم يوم واحد من البهجة. ليتنا نستطيع أن نقدم لهم أكثر».

- مثل ماذا؟

ترددت قليلاً ثم رمقته بنظرة أكدت له أنها ليست واثقة بعد ما إذا كان بإمكانها أن تأتمنه على أسرارها وأحلامها وخططها.

حبس مايكل أنفاسه. وحين سمعها تتنهد حذا حذوها.

- رأيت عند طرف الشارع بناءً معروضاً للبيع فأعجبني متجره الصغير ذا الواجهة الكبيرة. أظن أنه كان متجراً للسكاكر. وحلمت بشرائه وتحويله إلى قاعة للمطالعة، قاعة فسيحة فيها أرائك وثيرة ووسائد وكتب، فضلاً عن طاولة في الزاوية للوجبات الخفيفة والفواكه. إنه حلم بسيط وسخيف لكنه مستحيل.

وتلاشى صوتها، فطرفت بعينيها وبذلت جهداً لتضفي على نبرة

صوتها طابعاً عملياً وهي تضحك بتراخٍ قائلة: «وكأن أعمالي الحالية ليست كافية».

ولاحظت أنه ما زال يمسك بيديها، فسحبتهما من بين يديه على عجل..

شعر مايكل بأنها لم تفضِ إليه بشيء على الإطلاق. لمَ لا تحدثه عن نفسها؟ لم لا تعترف له بتعلقها بمجموعة «لو ليتل» من التماثيل الصغيرة؟ يمكنه عندئذ أن يغيظها ويسخر من سذاجة الأسماء التي أطلقها عليها. هل كانت ثقتها فيه ضعيفة إلى هذا الحد؟ لعلها تعرفه جيداً وتشعر بنفوره من كل ما يوحي بالرومانسية، والحنان. لكنه أرادها أن تعرف أنه أصبح ناضجاً وبمقدوره أن يضع ميوله الشخصية جانباً ليسعد الآخرين.

قال لها بنبرة جافة: «صحيح أن حلمك نبيل للغاية وسأحرص على إضافته إلى ملف الأحلام المستحيلة، ولكن ألا تريدين شيئاً لنفسك؟»

لم تبدِ أي رد فعل.

- ألا ترغبين في هدية معينة؟ آنية خزفية أو حذاء من تصميم مصمم مشهور؟

- بالله عليك يا مايكل، ما الذي تعرفه عن الآنية الخزفية والأحذية؟

أجابها بعناد: «أعرف أن الفتيات يعشقنها».

كانت خبرته في أذواق الفتيات حديثة نسبياً وهي ثمرة ما سمعه على لسان كل متطوعة دخلت مكتب جمعية بابا نويل السرية.

- أعرف جيداً ما تحاول أن تفعله. لا تظن أنه بإمكانك خداعي.

تظاهر بالبراءة وسألها: «ماذا؟».

- سمعتك تتحدث مع كل واحدة من المتطوعات عما ترغب في الحصول عليه في عيد الميلاد، حتى أنني بدأت أتساءل ما إذا كانت شخصية بابا نويل حقيقية؟ وكيف شكله؟ أتراه يشبه مايكل بريوستر؟

- ما زلت تراوغين.

- دعني أفكر.

- خذي وقتك كله.. يفصلنا عن عيد الميلاد عشرون يوماً.

صححت كلامه على الفور: «ثمانية عشر يوماً... لا.. مهلاً، تجاوزت الساعة منتصف الليل. سبعة عشر يوماً».

وهذا يعني أن عليه أن يتخذ قراراً سريعاً بشأن عرض تلك العجوز المزعجة في جورجيا التي أكدت له أنها لن تتنازل عن تمثال «الفارس» إلا على جثتها أو مقابل ثلاثة آلاف دولار..

- لا أريدك أن تشتري لي هدية يا مايكل فوجودك بيننا والعون الذي قدمته لنا أثمن هدية قد نحصل عليها.. لا داعي لأي هدية أخرى..

كانت هذه الكلمات كافية لبعث الدفء في نفس المرء لفترة طويلة، طويلة جداً، فاعترافها الواضح باكتفائها بوجوده أسعد قلبه.

وتنبه فجأة إلى أن تمثال «الفارس ذو الدرع اللامع» يستحق كل فلس طلبته صاحبته..

قال لها: «كانت ليلة ممتعة. أمضيت وقتاً طيباً.. وأنا لا أعطي شيئاً فعلاً بل آخذ».

رمقته بنظرة ساخطة وكأنها تتساءل ما إذا كان يعني فعلاً ما يقول.

- قمنا بطلي العصي الخشبية ووضعنا اللمسات الأخيرة على مقعد بابا نويل... وكانت موسيقى الميلاد تصدح طوال الوقت.

- نعم، أمضينا وقتاً ممتعاً. ورقصة لولو كانت غاية في الروعة. ليتنا قمنا بتسجيلها!

وظهر طيف ابتسامة على ثغره وهو يتذكر رشاقة تلك المرأة الضخمة وهي تعتمر قبعة بابا نويل وتلف قماشاً مخملياً أحمر حول جسدها وترقص... وسرعان ما راح الكل يصفّق. بعدئذ، انفجر الكل بالضحك حتى كادوا يقعون أرضاً.

كان مايكل قد بدأ يستعيد حبه للحياة والضحك والدفء...

وبات مستعداً لكل شيء.

بدا الارتياب على وجه كريستن.

- يفاجئني تصرفك كثيراً لاسيما وأنك اختبرت الكثير في حياتك، أمور جامحة، وعنيفة وممتعة للغاية.

- أعطيني مثلاً.

رباه! سيتوهج حتماً خداها خجلاً.

- أراهن على أنك قفزت من الطائرة.

- مرة واحدة فقط.

- هل مارست القفز بالحبال المطاطية؟

واحمرّ خداها رغم أنه لاحظ مؤخراً أنها باتت تتحكم بخجلها بشكل أفضل. لم يكن يعلم ما الذي يجعلها مصممة على الإيحاء بأنها فتاة متعددة النشاطات، خلافاً لما هي عليه في الواقع.

قالت له وقد بدا عليها الارتباك:

- هل فهمت ما أقصده؟ أتتوقع مني أن أصدق أنك استمتعت بوقتك هذا المساء؟ لا يمكن أن تكون قد استمتعت ببناء مركبة بمساعدة مجموعة من العجائز.. فهذا ممل جداً.

- هل نسيت أداء لولو؟ لا أحد يستطيع وصف أداء لولو بالممل. أنا واثق من أنها لن تتوانى عن قتلك إن علمت أنك وضعتها في خانة الأشخاص المثيرين للملل. بدت متحمسة جداً لحفل الميلاد الذي يقام خصيصاً للمتطوعين وذكرتني ثلاث مرات أنه سيقام في عطلة نهاية الأسبوع وطلبت مني أن ارتدي بذلة رسمية.

- لا تسنح الفرصة للمتطوعين بالتأنق إلا في هذه المناسبة. لذا، تجدهم يحرصون على أن يكون الحفل رسمياً.

كشر مايكل اشمئزازاً وقال: «لا أجد أي متعة في الحفلات المماثلة».

علماً أنه حرص على تنظيف البذلة الرسمية التي اشتراها بمناسبة زواج أحد أصدقائه.

- حسناً، ما الذي تعتبره مرحاً؟

نظر إليها بطرف عينه قائلاً: «لا تحاولي الخوض في هذا الموضوع يا فتاة».

شبكت ذراعيها فوق صدرها وأجابته: «سأفعل. حدثني عن أفضل عمل قمت به بحثاً عن المرح».

كان الخيار صعباً جداً.. هل يخبرها عما فعله مع شقيقه براين يوم قاما بتزيين شجرة الصنوبر أمام منزل مدرّستهما الفاتنة بملابسها الداخلية؟ لم يكن الأمر ممتعاً حقاً لأن والدتهما انفجرت بالبكاء عند حضور رجال الشرطة إلى منزلهما.

ماذا عن رحلته إلى بويرتو فالارتا، وممارسته رياضة ركوب الأمواج والإبحار، ومطاردته الفتيات الفاتنات؟ عند تفكيره في الأمر، وجد أن ما فعله كان ممتعاً بعض الشيء لكنه في غاية الغباء، فقد كسر براين رجله، وانفجرت والدتهما بالبكاء من جديد لدى رؤيتها فاتورة العلاج.

ارتأى مايكل ألا يخبرها أنه بات أكثر إدراكاً من أي وقت مضى. فأفضل ما قام به في حياته هو انضمامه إلى جمعية بابا نويل السرية ودخوله هذا العالم السحري الفاتن الذي ترفرف فوقه روح الميلاد؛ عالم تجري فيه أنهار الحب والكرم غزيرة حتى تكاد تعمي الناظر.

- إنني في حيرة من أمري. ما الذي جذبك إلينا؟ فنحن نفتقر إلى المرح والإثارة...

نظر إليها وقد أدرك أنه ليس لديها أدنى فكرة، فحياته كانت خالية من أي معنى قبل أن يعبر عتبة هذا الباب ويدخل عالم كريستن.

ولم يعد يرى في تلك المغامرات التي تورط فيها مع أخيه سوى أعمال صبيانية طائشة. وهذا لا يعني أنه نادم عليها، لكن شيئاً ما في داخله أصبح مستعداً للمضي قدماً والنضوج.

لم يكن واثقاً ما إذا كان هذا ليحصل لو بقي براين على قيد الحياة فقد اعتادا على أن يحرضا بعضهما البعض، ويستمدا الطاقة من بعضهما البعض من دون أن يفترقا أبداً... وإن حاول أحدهما أن يتخذ صديقة

له، سعى الآخر إلى إفساد العلاقة بينهما، متذرعاً بأن الفتاة ليست مناسبة له.

ماذا كان براين ليقول عن كريستن؟

كان سيجد فيها ربة منزل من الطراز الأول. وعاوده صوت براين وضحكته الرنانة وهو يقول لوالدتهما التي اعتادت أن تتذمر منهما: «نحن نبحث عن ربات منزل يا أمي».

وكانت والدته تجيبه ساخطة: «لن تعثرا على هذا في الأماكن التي ترتادانها. قابلت فتاة جميلة في الكنيسة».

وقبل أن يتسنى لها أن تكمل كلامها، ينفجر براين ضاحكاً ويحمل والدتهما بين ذراعيه ويدور فيها في الغرفة إلى أن تبدأ بالضحك بدورها..

شعر مايكل بالألم عندما تذكر ضحكات أخيه ووالدته. وخشي أن يغمره الحزن من جدد. لكن عندما نظر في عيني كريستن، ركدت مياه البحر المائجة في داخله.

قال لها بنبرة هادئة: «استنفدت حاجتي للمرح».

وأدرك في تلك اللحظة أنه أصبح مستعداً للبوح بسره واتمانها عليه.

- أتذكرين الحادث الذي حدثتك عنه؟

أومأت كريستن برأسها.

- كانت عائلتي تملك مركباً للصيد في ألكسا، موطن والدي الأصلي. وكنا نتردد على تلك المنطقة في مواسم الصيد. ألديك أي فكرة عن صيد السرطان؟

هزت رأسها بالنفي.

- إنها عملية صعبة للغاية ومحفوفة بالمخاطر إذ يعتبر البحر هناك من أخطر البحار في العالم وأكثرها إثارة. والصياد الماهر هو من يتمكّن من دخول الميناء ومركبه محمل بالسرطان وهو يشعر وكأنه فاز بجائزة اليانصيب. في شهر نيسان من تلك السنة، عدنا من الصيد ومركبنا محمل

بكمية هائلة من السرطان. كان الموسم قد شارف على الانتهاء والطقس ينذر بهبوب عاصفة. لم أشأ العودة إلى عرض البحر من جديد، لاسيما وأننا حققنا أرباحاً طائلة فاقت الثلاثمائة ألف دولار.

«لم يكن والدي جشعاً لكن صيد السرطان يبعث في النفس الكثير من الحماسة. كان والدي رجلاً حريصاً على التمسك بالحياة بكلتي يديه، واعتاد هو وشقيقي براين أن يفرضا رأيهما علينا، أنا وأمي. وكانت والدتي ترافقنا دائماً لتحضير الطعام والسهر على راحتنا.

«وعلى بعد ١٨٠ ميلاً في عرض البحر، غرق مركب «ملكة تريمونت» الذي أسميناه على اسم والدتي. ومات ركابه كلهم... كلهم...»

وخيم السكون على المكان بينما بقي الثلج ينهمر بغزارة.

خرقت كريستن الصمت وسألته هامسة: «ألم تكن على متنه؟ ألم ترجع معهم إلى عرض البحر؟»

- بلى، كنت برفقتهم لكنني بقيت على قيد الحياة بفضل سترة النجاة. تمكّن فريق الإنقاذ من انتشالي من المياه الهائجة بعد مضي ساعات لكن روحي قضت مع أرواحهم في تلك الليلة. كانوا روحي يا كريستن.

- فهمت!

الغريب في الأمر هو أنه كان واثقاً من أنها فعلت. صحيح أن الكثيرين كانوا يواسونه مدعين أنهم يقدرون ما يشعر به، لكن أحداً منهم لم يتمكن من إدراك حقيقة مشاعره..

عندما نظر في عينيها ورآهما مغرورقتين بالدموع التي ما لبثت أن سالت على خديها، أدرك أنها فهمت.

تملكته رغبة ملحة في مواصلة الكلام والإفضاء بكل ما كان يثقل قلبه ويدفعه إلى الانجراف نحو الهاوية.

-لم أرَ أحداً منهم في المياه تلك الليلة. لم استطع أن أنقذهم. ولو أدركت حينها أنهم غرقوا جميعاً، لما بقيت صامداً في المياه. كم أسفت لبقائي حياً، وكم كنت ساخطاً عليهم..

كانت هذه المرة الأولى التي يعترف فيها بهذا الأمر. وبدلاً من أن يشعر بالذنب، شعر بنفسه حراً طليقاً وغمره شعور بالارتياح بعد أن أفضى لكريستن بما يختلج في صدره، حتى غضبه الشديد من أفراد عائلته الذين قضوا غرقاً.

سألته هامسة: «ما هي الكلمة الأخيرة التي ترغب في أن تقولها لهم؟»

لو قُدّر له أن يتكلم معهم للمرة الأخيرة، لعبّر لهم عن مدى حبه لهم.. كلا.. كان مصمماً على البوح بحقيقة مشاعره لكريستن.

– ماذا أقول لهم؟ سأصرخ في وجوههم وأعاتبهم لأنهم رحلوا من دوني... لمَ رحلتم جميعاً وتركتموني وحيداً؟

أفضى مايكل بكل ما لديه فتملكه إحساس بالكآبة امتزج بشيء من الارتياح أيضاً. كان يخشى، إذا ما تكلم، أن ينهار السد الذي شيّده في أعماقه فتسيل انفعالاته المكبوتة وتدمر كل ما يقف في طريقها. إلا أن انهيار السد حمل معه مشاعر حب رقيقة تدل على قوة العلاقة التي كانت تربط بين أفراد العائلة.

وتذكر يد والدته الحنون وهي تستريح على جبينه في مرضه، ويد والده المؤنبة على مؤخرته يوم كسرا نافذة السيد ثيودور للمرة الثالثة على التوالي. وتذكّر شقيقه الذي يكبره بسنتين وهو يمسك بيده ويصحبه إلى المدرسة في اليوم الأول.

وقفت كريستن على رؤوس أصابعها وضمته إلى صدرها فشعر بدموعها المشبعة بالملح. بادلها مايكل العناق باذلاً ما في وسعه ليكون رقيقاً، غير أن مشاعر الأسى والغضب والفرح والذكريات المستعرة في داخله ما لبثت أن طغت على عناقه فتحول عنيفاً جامحاً.

وسارعت كريستن إلى الابتعاد عنه، فأدرك مايكل أن لا أحد منهما يعلم ما إذا كانت كريستن مستعدة للتورط في علاقة مع شخص قاسٍ مثل مايكل بروستر.

غشت الدموع المترقرقة من عينيها نظرها فأصبحت بالكاد تراه.. كيف تمكّن هذا الرجل الذي ذاق الأمرّين في حياته من أن يشتري لتلك الفتاة الصغيرة التي تحلم بزيارة ديزني لاند كل ما يلزمها ليتحوّل حلمها إلى حقيقة؟ كيف استطاع أن يفعل هذا كله فيما أحلامه تحطمت بقسوة تفوق الوصف؟ كان قادراً على ذلك لأنه مايكل.. مايكل الذي زرع البسمة على شفاه الجميع، مايكل الذي يكره أغاني الميلاد، والذي شارك لولو الرقص، ونجح في تغليف الهدايا الغريبة الشكل.. مايكل الذي حول حطام مركب قديم إلى مركبة حقيقية لبابا نويل.

مايكل الذي يتحداها في كل يوم لتخفف من ضبطها لنفسها وتجازف بجزء وإن بسيط من قلبها..

قال لها إنه رجل مرتبط، وبذلت قصارى جهدها لتصدق كلامه. لكن الثقة التي وضعها فيها الليلة جعلتها تشعر بولادة شيء جديد، شيء لا يمكن إعادته إلى ما كان عليه إذا ما تغير..

همس في أذنها: «آسف، لكن علي أن أنصرف.. أفضل أن أنفرد بنفسي».

قالت لها النظرة البادية في عينيه إن لا علاقة لها برغبته الملحة في البقاء وحده. كان الأمر يتعلق به شخصياً وبذكريات الماضي الأليمة التي تتزاحم في ذهنه.

كانت كريستن تعي أن حاجتها إلى الانفراد بنفسها تضاهي حاجته إذ أرادت أن تفكر ملياً في ما حصل خلال الأيام القليلة الماضية والمشاعر المتضاربة في داخلها.

لم تشأ أن تطلق العنان لانفعالاتها، بل أرادت أن تعيد النظر في مسار حياتها والمخاطر التي كانت مستعدة لتحملها. وعلى الرغم من أنها تدرك أن من الأفضل أن يعود كل واحد منهما إلى منزله، لم تستطع ضبط نفسها وهي تنظر إلى وجهه المتشنج، فسألته بنبرة لا تخلو من التردد: «هل أنت واثق من أنك لا ترغب في مرافقتي لاحتساء القهوة؟»

- ليس هذا المساء. يمكننا أن نرجئ الأمر إلى وقت آخر.

استدارت كريستن وتوجهت نحو سيارتها وهي تدرك أنه بقي واقفاً يراقبها حتى فتحت الباب. كان مصراً على حمايتها حتى في تلك اللحظة العصيبة التي يحاول فيها احتواء نيران مشاعره المتأججة. شغّلت مساحتي الزجاج لتزيل الثلج المتراكم عليه، وانطلقت بسيارتها وقد تملكتها رغبة ملحة في الفرار من مشاعرها.

شاهدت في المرآة طيف رجل وحيد تائه وسط الثلوج، فأحست بنفسها وحيدة أكثر منه. لمَ ائتمنها على أسراره؟ ما الذي دفعه إلى الاعتراف بنقطة ضعفه لها؟ أيعقل أن تكون مشاعره نحوها أقوى مما تتصور؟ أتراها جديرة بثقته؟ أتراها مستعدة لتحملها؟

٧ - ذكرى الحب الكبير

وقف مايكل يتأمل كريستن وهي تنطلق بسيارتها مبتعدة عنه، ثم دس يديه في جيبي سرواله وشق طريقه وسط طبقة الثلج السميكة متوجهاً نحو السيارة التي تشاركها مع أخيه في الأيام الخوالي. يمكنه الليلة أن يفتح ألبوم الصور الذي تفاداه طويلاً... يمكنه الليلة أن يعود بالذاكرة إلى الحب العظيم الذي أحاطته به عائلته منذ نعومة أظافره... فمنذ اللحظة، أصبح مستعداً للعيش على ذكرى هذا الحب بدلاً من التعلق بذكريات اللحظات الأخيرة المؤلمة.

عندما قرر مايكل أن يشارك كريستن ذكرياته الأكثر عمقاً وقسوة، غمره إحساس بالارتياح وهو يتحدث إليها، وشعر وكأنه بلغ بر الأمان بعد أشهر طويلة من الضياع وسط العواصف الهائجة... لقد وجد في كريستن ملاذاً آمناً...

كان يعشق تناقضاتها: فعيناها وعدتاه بملاذ آمن بينما أغراه شيء فيهما بمغامرة فريدة من نوعها، مغامرة مغرية ومثيرة للرعب في آن معاً. وهذا المزيج من الفضول والرعب جعل قلبه، عاجزاً عن المقاومة...

أربعة عشر يوماً قبل حلول عيد الميلاد..

في أحد الأيام، قال لها مايكل بنبرة ودودة بينما هما يستعدان لمغادرة المكتب: «اسمعي.. ماذا عن فنجان القهوة الذي وعدتني به؟».

منذ أن أفضى إليها بمكنونات قلبه، بات مايكل أكثر استرخاءً وانفتاحاً. وافتر ثغره عن ابتسامة ساحرة عند رؤيته التعبير المرتسم على وجهها وهي تسأله: «في منزلي؟».

بدا واضحاً أنها تقوّم حال منزلها للتأكد ما إذا كان مرتباً ونظيفاً. وكم

www.elromancia.com

تمنى ألا يكون كذلك، فقلة الترتيب تدل على جوانب كثيرة في شخصيتها!

- لا بأس. .سأتبعك بسيارتي.

كان المبنى الذي يقع فيه منزلها تماماً كما توقع: مبنى من طابقين من الحجر الرملي الأسمر، غير مزود بمصعد كهربائي.

يؤدي الباب الأمامي إلى غرفة جلوس مرتبة ونظيفة تجسد طبع كريستن الهادئ خير تجسيد. وكانت طاولة القهوة مزينة بغطاء من الدانتيل بينما وضعت بطانية محبوكة يدوياً على أريكة باللون الأبيض.

ولفت انتباهه كتاب مفتوح وموضوع على طاولة جانبية فاختلس مايكل النظر إليه ورأى امرأة في فستان أحمر قصير يعانقها رجل بشغف وكأنه أحد مصاصي الدماء.

لاحظت كريستن نظراته المتفحصة فأطبقت الكتاب على عجل ووضعته خلف ظهرها.

- هل اخترت هذا الكتاب من النادي؟

أراد أن يذكرها بحقيقة ذاتها، وإذا بالحمرة العفوية المعهودة تعلو خديها.

- كلا، أعارتني إياه لولو وأصرت على أن أقرأه لأنه الكتاب المفضل لديها. . ولكنني لست من هواة هذا النوع.

- يبدو لي أنك قرأت قسماً كبيراً منه.

- خشيت أن تسألني لولو عنه.

- نعم، طبعاً. ربما كان علي أن ألقي نظرة عليه أيضاً بحثاً عن موضوع جديد أناقشه مع لولو.

حدقت فيه ساخطة وأشارت بيدها إلى الأريكة قائلة بنبرة الأمر: «تفضل بالجلوس ريثما أعد القهوة».

خرجت من الغرفة وهي تشد الكتاب إلى صدرها فكبت مايكل ابتسامة كادت ترتسم على شفتيه وراح يتأمل المكان. خيل إليه أنها المرة

الأولى التي تستقبل فيها رجلاً في منزلها. لا شك أن ثقتها به كبيرة جداً لتدعوه إلى هنا، مع أنه لا يستحق هذه الثقة. فهذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها شقة امرأة في هذه الساعة من الليل لاحتساء القهوة فقط. في الواقع، لا بد له من الاعتراف بأن كريستن ترغمه على أن يحسن التصرف.

جال في غرفة الجلوس محاولاً أن يكوّن فكرة سريعة عن شخصيتها لكنه لم يجد في الغرفة ما يلفت الانتباه باستثناء ذلك الكتاب.

وتنبّه فجأة إلى أن الغرفة تفتقر إلى أمر أساسي، إذ لم يرَ فيها أي صورة. كانت جدران منزله الذي تولّت والدته مهمة تزيينها بنفسها، مليئة بصوره وصور شقيقه منذ سن السادسة. . .حملت تلك الجدران صور أفراد العائلة والتذكارات من الرحلات إلى الخارج والجوائز، فقد كانت والدته تجد في الجدران الفارغة تحدياً فتزيّنها بذكريات ولديها، وزوجها وحياتها. .

إلا أن كريستن اختارت عدداً من الرسوم، فعلقت على أحد الجدران رسماً لشجرة بلوط تغيب الشمس من ورائها، وزيّنت الجدار الآخر بلوحة تجسد مشهد شاطئ بحر يرسو عليه مركب مهجور. ولم تتكبد عناء وضع صورة لأحد أفراد عائلتها. دخل مايكل قاعة الطعام المجاورة لغرفة الجلوس فخيّل إليه أنها لم تُستعمل قط من قبل. لفتت انتباهه الخزانة الزجاجية الكبيرة المخصصة للأواني الخزفية والتي تغطي الحائط كله فاقترب منها وضغط على زر مجاور لها، فأضيئت أنوارها كاشفة عن مجموعة «ليتل». كان المشهد مروعاً جداً فأطفأ مايكل النور على عجل وعاد مسرعاً إلى غرفة الجلوس.

- أتفضل القهوة العادية أم الخالية من الكافيين؟

وتناهى إلى مسمعه صوت الفناجين، فدخل من الباب الذي دخلت منه ووقف متكئاً إلى الجدار يراقب ما تفعله. وعلى الرغم من ضيق المطبخ، لم تلاحظ كريستن أنه يراقبها إلا بعد مرور بعض الوقت. وأكد

له ارتباكها أنه لم يسبق لها أن عبثت مع أي رجل في شقتها..

- أفضلها خالية من الكافيين.

وضعت كريستن البن في أصغر آلة لتحضير القهوة رآها في حياته. كلا، لم تعتد استقبال أحد في منزلها كما لم تعتد تحضير القهوة لأكثر من شخص واحد.

أزعجتها نظراته المتفحصة فأراقت الكريما وهي تهم بسكبها في الكوب. ولم تكن الحمرة التي علت خديها عند اختلاسه النظر إلى الكتاب الذي تقرأه قد تلاشت بعد، فازدادت في تلك اللحظة حدة.

- لا أرى أي أثر لعيد الميلاد في هذا المكان يا ماما نويل.

راحت نظراته تتأمل مطبخها الضيق الصغير، فلم يلفت انتباهه ما يوحي باقتراب عيد الميلاد... لكن المكان بدا مريحاً ونظيفاً فالتوابل مرصوفة بشكل مرتب فوق الموقد، بينما وُضعت طاولة الطعام تحت نافذة ذات ستائر صفراء مزركشة بالنقوش.

أجابته وهي تحاول عبثاً أن تنظّف بقايا الكريما: «كنت أنتظر الجني ليزيّن لي المنزل. لكننا، وكما تعلم، لم نتمكن من العثور على جني بعد».

أشفق مايكل على حالها وقد شعر بأنها على وشك أن توقع كوباً آخر، فأخذ فوطة المطبخ من يدها وراح يمسح بقايا الكريما.

ولمست يده يدها عن غير قصد فاحمرّ خداها من جديد، لكنه ترك إصبعه يرتاح على إبهامها لبرهة صغيرة من الزمن..

يا للغرابة! فاللحظات الحميمة التي عرفها مايكل مع النساء الأخريات كافية لتجعل هذه اللحظة تبدو سخيفة للغاية.. غير أنها لم تكن كذلك.. فعندما لامس إصبعه إبهامها بخفة واستعرت النيران فجأة في عينيها، شعر بالجليد يذوب في عروقه المتجمدة لتدب فيها الحياة من جديد. وفجأة شعر بقلبه يخفق بقوة كما لاحظ تسارع نبضها الجنوني.

عاد مايكل وحذر نفسه من التهور في التعامل معها، إلا أن الابتعاد

عنها تطلب منه الكثير من ضبط النفس، ما أثار ذهوله.

بدت كريستن في حيرة من أمرها وهي تراه يغسل الفوطة بالماء ويضعها في الحوض ثم يخلع سترته ويعلقها على الكرسي ليجلس بعدها إلى طاولة المطبخ الصغيرة.

نظرت إلى الصينية التي جهزتها وقالت له: «كنت أنوي حملها إلى غرفة الجلوس».

- لكنني من النوع الذي يفضل طاولة المطبخ.

- لم أفهم ما تقصده.

- لسوء الحظ لم أكن سيء النيّة.

اكتسحت الموجة القرمزية التي توقّعها وجهها.

- هل تملكين ورقاً للعب؟

أدرك مايكل أن صوته خرج أجش وضعيفاً..

- ورق للعب!

تقلبت جبينها وهي تنظر إلى الصينية التي جهّزتها وقد بدا عليها الارتباك. لا بد أنها تصوّرت أنهما سيجلسان في غرفة الجلوس ويحاولان التفكير في ما سيقولانه...

- ورق للعب؟

- سنلعب الورق. سأعلمك لعبة جديدة.

رمته بنظرة ارتياب وسألته: «وهل الورق مثير للرغبات إلى هذا الحد؟»

كانت البهجة تغمر قلب مايكل كلما وجهت إليه كريستن تلك الانتقادات اللاذعة، كما أن كلماتها تترك في نفسه أثراً مشابهاً لتأثير ملامسته لها ما أدى إلى تصاعد حدة التوتر في الغرفة.

- كلا.. لسوء الحظ..

وحذّر نفسه من مغبة اللعب بالنار لكنه لم يتمكن من مقاومة رغبته في أن يفعل..

- لكن إن كنت تفضلين أن نراهن على ملابسنا فلا مانع عندي.

وقفت كريستن تحدق فيه وهي تعضّ شفتها. . .وكم تمنى لو تتوقّف عن ذلك! ثم اتجهت نظراتها نحو الباب. . أتراها تفكر في إمكانية الفرار؟ أم تريد أن تبدل ملابسها وترتدي ملابس مريحة أكثر؟

وعاد وحذر نفسه من عاقبة التهور. .

انفجر ضاحكاً وقال لها:

كنت أمازحك.

توقّع مايكل أن تفاجئه كريستن برد فعلها؛ وبدلاً من أن تتنفس الصعداء، بدت ناقمة عليه.

كانت كريستن فتاة صالحة، ولطالما حلمت والدته بأن تزوجه فتاة مثلها. لذا، عليه أن يكون جديراً بها.

- اعتاد أفراد عائلتي أن يجلسوا، في زمن الميلاد، حول طاولة المطبخ ويلعبوا الورق.

واستطرد قائلاً: «كان عددنا يتجاوز أحياناً الخمسين شخصاً، ولا يتعدى أحياناً أخرى الأربعة، أنا وأمي وأبي وأخي».

أراد أن يمنحها الفرصة لتخبره عن العادات التي تتبعها عائلتها في عيد الميلاد، غير أنها كانت تحمل صينية القهوة بتركيز شديد وكأن حياتها تتوقف على ألا تريق نقطة أخرى من الكريما. وضعت الصينية على الطاولة ثم توجهت نحو أحد الأدراج وأخرجت منه رزمة من أوراق اللعب وقد بدت مذهولة وراضية عن نفسها لأنها تمتلك واحداً.

نزع مايكل الغلاف عن الرزمة الجديدة وغير المستعملة، وراح يخلط الورق فيما كريستن منهمكة بصب القهوة. لم يغفل عنه أن الآنسة النقية كنقاوة الثلج تختلس النظر إلى يديه.

جلست كريستن مكانها بينما راح مايكل يوزع الورق ويشرح لها قيمة كل واحدة منها وقواعد اللعبة. فهمت أصول اللعب على الفور، وبدأ توترها يزول شيئاً فشيئاً. ومع بلوغهما الدور الثالث، كانت كريستن قد

بدأت تضحك باسترخاء في حين جاهد مايكل ليركّز على اللعب.

حذّرها: «إياك أن تغشي».

- لست معتادة على الغش.

لم يكن لديه أدنى شك في ذلك. .

قال لها مبتسماً: «اعتاد والدي أن يغش في اللعب فهو يعشق المنافسة ولا يتوانى عن الغش في سبيل الربح. .تخيلي رجلاً ناضجاً وناجحاً مثله ولا يحتمل أن يهزمه أحد في الورق».

- كم هذا جميل!

- أما أخي، فكان يحب المراهنة. إما على النقود المعدنية في حضور والدتي أو على أي شيء آخر في غيابها.

- مثل ماذا؟

- كرات الغولف، الشوكولا المحشوة بالزبيب وسوى ذلك. . ولن ننسى والدتي. . .

هزّ رأسه متظاهراً بأنه لم يلاحظ أن كريستن غصّت وهي تشرب القهوة.

- لم تكن بارعة في لعب الورق. كانت دائمة الانشغال بملء الأطباق برقائق البطاطا وتحضير القهوة. لم يتسنَ لها أبداً أن تحفظ قواعد اللعب، لكننا كنا نتفادى أن نوجه لها الانتقادات لأن الحماسة كانت تغمرها كلما خيل إليها أنها ستفوز.

إنها المرة الأولى التي يخالجه هذا الشعور وهو يتذكر أفراد عائلته فقد أحس وكأنه يعانقهم ويتنعّم بالحب الذي لطالما أغدقوه عليه. وأدرك في تلك اللحظة أنه أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يُغرق نفسه في بحر الحب وإما أن ينغمس في آلام تلك اللحظات الأخيرة.

- أترغبين في رؤية صورهم؟

- طبعاً.

وفيما هو يُخرج محفظته من جيبه، خطر له أنه لم ينظر إلى هذه

الصور منذ فترة طويلة جداً.

ناولها أولاً صورة براين.

- كم يشبهك!

وراحت تلمس الصورة بأناملها الرقيقة وكأنها قادرة على لمس وجه شقيقه.

- إن كان يشبهني فعلاً، فلمَ كانت الفتيات يتوددنّ إليه أكثر مني؟

- لا أصدقك.

ابتسم ابتسامة عريضة وناولها صورة والدته فقالت: «مايكل! أعرف بالضبط أين نوع من الأمهات كانت والدتك؛ أم بارعة في تحضير البسكويت المغطى برقائق الشوكولا... وتفضّل العلاجات المنزلية. وأراهن على أنها اعتادت أن تعنفك باستمرار».

- ألم تلاحظي أن شحمة أذني اليمنى أطول من شحمة أذني اليسرى لكثرة ما كانت تشدها؟

تأملت كريستن شحمة أذنه وأجابت قائلة: «أرى ذلك بوضوح».

لسوء الحظ، أثار ذلك في قلبه الشعور نفسه الذي خالجه عندما تلامست يداهما... وأصبح الهواء فجأة مشحوناً.

نظر إلى محفظته من جديد محاولاً أن يتذكر ما كان يفعله.

- وهذا والدي.

- كم هو وسيم! يبدو أن الوسامة متوارثة في العائلة.

كان يدرك أن وسامته تجذب النساء، لكن عندما سمع منها هذا الإطراء أحس بالغرور يملأ قلبه بشكل خطير.

- يؤسفني أنني لن أتمكن من التعرف إليهم.

- نعم.. وأنا أيضاً.

وضع الصور جانباً وقرر أن يعود إلى لعب الورق من جديد.

- أتريدين المراهنة على شيء ما؟

- مثل ماذا؟

- أنا رجل سيء النية.. فكري في شيء ما..

قالت له بحماسة لا توصف، وقد بدا الارتباك في عينيها وعلت الحمرة خديها: «مغلفات الشاي».

تنهد مايكل في سره... كان يتعامل مع نوع جديد من الفتيات، نوع مختلف ومنعش في آن معاً.

- ماذا يمكنني أن أعطيك في المقابل؟

حبست كريستن أنفاسها وقد خشيت ما سيحمله رده.

- قطع نقدية. لكنني لا أحمل معي سوى دولارين فلا تكوني قاسية معي.

ولم تكد تمر ساعة واحدة حتى وجد أمامه كومة من مغلفات الشاي ذات الأوراق البراقة، بنكهات متنوعة.

رأى مايكل في نهاية الأمر أنه نجح في أن يثبت لنفسه ولكريستن أنه رجل نبيل. وسيكتفي الليلة بالاستمتاع بكوب من الشاي بنكهة الخوخ.

مد يده إلى الخلف بحثاً عن سترته، ودس مغلفات الشاي في جيوبه قائلاً: «علي أن انصرف يا كريستن.. أمامنا يوم شاق في الغد. لا تنسي الحلم المستحيل رقم ٢٥.. كوخ قطبي لاسمايل».

رافقته إلى الباب، وبدا واضحاً له أن الارتياح الذي شعرت به وهما يلعبان الورق قد تلاشى.

عندما وصلا إلى الباب، راحت تتلهى متحاشية النظر إليه.

أراد أن يسهل الأمر عليها، فأمسك بيدها وطبع قبلة رقيقة عليها.

قال لها: «تصبحين على خير».

وسارع إلى الخروج من الباب.

لم يتنبه مايكل لحقيقة ما جرى هذا المساء إلا وهو يمسح المزيد من الثلج المتراكم عن سيارته: لم يبخل عليها بشيء على الإطلاق لكنها لم تقدّم له أي شيء في المقابل.

لم يتمكن من أن يعرف شيئاً عن عائلتها أو تقاليدها، ولم ينجح بعد

www.elromancia.com

في معرفة ما تريده في عيد الميلاد. التفت مايكل ورفع نظره إلى نافذتها فوجدها واقفة عندها تراقبه. وعلى الرغم من إحساسها بالحرج إلا أنها لم تتوانَ عن التلويح له بيدها.

رفع مايكل يده ولوح لها بدوره. لكن الأسئلة بقيت تضج في رأسه. .لمَ لم تخبره الحقيقة؟ لم هي مصممة على أن يستمتع الجميع بعيد الميلاد في حين أنها ترفض أن تحصل على أي شيء لنفسها؟

وقفت كريستن تراقبه إلى أن انطلق بسيارته. . . أتراها كانت تتوق لأن تعيش لحظات شبيهة بتلك التي تشاطراها منذ بعض الوقت؟ ألم تكن تتمنى في سرها أن يمسك بيدها ويضمها إليه بقوة، على الرغم من تصميمها على أن تتخذ قراراتها بشكل عقلاني؟ ألم تكن تحلم بأن يأخذها بين ذراعيه ويعانقها حتى تصبح عاجزة عن التقاط أنفاسها؟ أو حتى التفكير؟ ألم تكن تتمنى أن يسكت عقلها الذي يملأه الخوف والرعب ويبحث عن الأمان والسلام؟

لكنه اختار عوضاً عن ذلك أن يلعب معها الورق، ويحدّثها عن عائلته معتمداً أسلوباً لطيفاً وكأنها مراهقة في أول موعد غرامي لها. أو لعل الأمر أسوأ من ذلك. لعل مايكل قرر أن يضعها في خانة الصديقة.

على أي حال، لم يعاملها مايكل برويستر معاملة المرأة الناضجة، أو كما توقعت منه أن يعامل امرأة ناضجة. . .

وعلى الرغم من أنها لا تدرك أبداً ما الذي تنتظره من علاقتهما، إلا أنها تعي أنها لا تريده أن يعاملها بهذه الطريقة. . .

ورغم أنها امرأة شديدة الحذر في ما يتعلق بالحب والمشاعر الجياشة، إلا أنها لم تكن ترغب مطلقاً في أن يتعامل معها رجل مثل مايكل وكأنها صديقة حميمة.

وفجأة، خطرت لها فكرة جهنمية: أي فتاة مفعمة بالحيوية ستلجأ، في هذه الحالة، للتسوق.

يكفي أن يرمقها مايكل برويستر بنظرة واحدة في حفل المتطوعين

ليدرك أنها ناضجة مثله تماماً. وتذكرت الإحساس الذي ساورها عندما عانقها وتسارع نبضات قلبها عندما تلامست يداهما.

اختلف شعورها عندما حدّثها في تلك الليلة عن عائلته والحادث المريع الذي تعرضت له. أحست بنوع من الدفء والمودة، ما ضاعف جاذبيته وأكد الشكوك التي قضّت مضجعها.

تمكّنت كريستن من العثور على ثوب مناسب لفتاة مثلها تنوي أن تلعب دور سندريلا لليلة واحدة فقط.

رأته وسط أحد المتاجر، وقد سُلّطت الأضواء عليه.

لم يكن فستاناً عادياً بل حلماً ورديا. . . .

فستان طويل أحمر اللون، ذو قصة بسيطة للغاية تنساب على الجسم. . . كان الجزء العلوي من الفستان يبرز مفاتن صدرها فيما يكشف ظهره عن بشرتها الخالية من أي عيب. . أما الجزء السفلي فينسدل برقة على الوركين ليصل إلى الأرض حيث تشكل دوامة بلون التوت البري المثير. . .

ما إن وقعت عيناها عليه حتى قررت كريستن شراءه مهما بلغ ثمنه إذ يكفي أن تلوح ببطاقة اعتمادها السحرية لتتحول في ليلة واحدة من فتاة رثة الملابس إلى امرأة ساحرة، تماماً كما في قصة سندريلا. .

فستان كهذا يحرّض المرأة على التلاعب بأسرارها الدفينة لتتمكّن من إظهار حقيقة ذاتها.

فستان كهذا قد يجعل الرجل عاجزاً أمام المرأة التي ترتديه. . .

عندما ارتدته كريستن، فاق تأثيره توقعاتها كلها. وبعد أن اشترت حذاءً ملائماً وبعض الحلي، تخطت الميزانية التي خصصتها لعيد الميلاد الثلاثمئة دولار. إلا أنها لم تأبه فالفستان محا صورة الفتاة العملية، الأكثر نقاوة من الثلج، والبارعة في لعب دور ماما نويل وأظهر كريستن في حلة جديدة: فتاة جريئة، مثيرة، ناضجة ولا تقاوم.

٨ - امرأة مختلفة

عشرة أيام قبل حلول عيد الميلاد..

لم يرتدِ مايكل بذلة رسمية منذ حفل زفاف صديقه براد، ما جعله يشعر بالغرابة الآن. وسمع صوتاً في داخله يقول له: «إنها ضريبة الحب». أليس صحيحاً أن الحب المتأجج في قلبه دفعه لأن يقصد بائع الزهور، مرتدياً هذه الملابس المضحكة، ويشتري باقة صغيرة من الورد؟ سيقام الليلة الحفل الخاص بالمتطوعين في إحدى أصغر القاعات في فندق «تريمونت» الراقي، وقد تبرع الفندق بكافة تكاليف الحفل تقديراً للجهود التي يبذلها المتطوعون في جمعية بابا نويل السرية.

لم يكن تنظيم حفل مماثل في مكاتب الجمعية ممكناً فكل شبر فيها مكدس بالهدايا والعلب. وكان مايكل يعاني من الصداع كلما فكّر في وسيلة لنقل هذه العلب كلها إلى المركبة.

لم تكن هذه المسألة وحدها تشغل باله بل شغله الغموض الذي أحاطت كريستن نفسها به. فعلى الرغم من أنه أخبرها قصة حياته كلها، إلا أنه يشعر يوماً بعد يوم أنه لا يعرف عنها إلا القليل القليل. فهي لم تفتح له قلبها أو حتى تعطيه بعض التلميحات البسيطة. هل مشاعرها نحوه مغايرة لمشاعره نحوها؟ تلك المشاعر التي دفعته لشراء تمثال «الفارس ذو الدرع اللامع» بثمن باهظ جداً، ليهديها إياه في عيد الميلاد.

وفيما هو يتجه إلى شقتها، بقي مايكل مشغول البال لشدة ما خشي ألا يكون اهتمامها به بقدر اهتمامه بها...

لكن ما إن وقعت عيناه عليها حتى زال قلقه إذ لا يمكن لامرأة أن ترتدي فستاناً مماثلاً لرجل لا تأبه لأمره. وقف مايكل مذهولاً يحدق في

المرأة التي فتحت له الباب.

لم تكن كريستن التي عرفها في جمعية بابا نويل السرية، تلك الفتاة التي تحاول إخفاء مفاتنها تحت ملابسها الفضفاضة.

كلا، كريستن هذه بدت رائعة الجمال بشعرها المرفوع وتبرجها الخفيف الذي أبرز عينيها الواسعتين، وجعل خديها يبدوان متألقين وفمها مغرياً.

كان الفستان ينساب على جسدها النابض بالأنوثة، مظهراً مفاتن فاقت توقعاته سحراً وجمالاً.

بدا مايكل كتلميذ صغير وهو يتأملها كالأبله. وأخيراً، قال لها: «تبدين مدهشة... جمالك يخطف الأنفاس.. رباه! تبدين متألقة».

- كفى!

واحمرّ خداها فشعر مايكل بالارتياح بعد أن لمح طيف كريستن التي يعرفها تحت هذه الطبقة الشديدة التأنق.

قال لها محاولاً أن يغيظها: «لا يفترض بك أن ترتدي فستاناً مماثلاً إن كنت لا تتحملين الإطراء. هل ألهمك الكتاب الذي أعارتك إياه لولو؟».

أراد مايكل أن يصبح خداها بلون فستانها، ونجح في تحقيق مراده!

لم يخبرها عن باقة الورد الصغيرة التي اشتراها لكن بائع الزهور نصحه باللون الأبيض إن كان لا يعرف لون فستانها. مد يده يبحث عن العلبة، وتمكن في نهاية الأمر من أن يخرج الباقة الصغيرة ويحملها بين يديه وهو يحدق في الجزء العلوي من فستانها.

قال متمتماً:

- يا للهول! دقت ساعة الخطر.

ضحكت كريستن وازداد توهج خديها حدة.. حمل الباقة الصغيرة والمشبك، ولمس قماش الفستان الذي كان ناعماً ومثيراً.

تراجع خطوة إلى الخلف ليتأمل عمله فلاحظ أن باقة الورد الصغيرة

غير مستوية لكنه أبى أن يصلح وضعها. وفقد فجأة رغبته في الذهاب إلى الحفل وتمنى لو يستطيع أن يقنعها بالدخول إلى شقتها والاستماع إلى الموسيقى الرومانسية الناعمة على ضوء الشموع...

- شكراً لك.. إنها المرة الأولى التي أحصل فيها على باقة ورد صغيرة لتزيين الصدر.

- ماذا؟ لا بد أنك وضعت واحدة في حفل تخرجك.

- كلا، لم افعل.

ولم يعد يرغب فجأة في تمضية الليلة برفقتها فحسب بل أراد أكثر من ذلك بكثير. أراد أن يوفر لها كل ما حُرمت منه في الماضي، وأحس أن واجبه يحتم عليه أن يعوض عليها في هذه الليلة، عن كل تصرف صدر عن أي شاب سطحي استخف بفتاة مثلها وألحق بها الأذى.

مد يده لها ورافقها إلى سيارته ثم فتح لها الباب وساعدها على وضع ذيل فستانها الطويل في ركن صغير.

كان الحفل ممتعاً للغاية فالطعام شهي، والألعاب مسلية. كما اختيرت لولو لتمثّل شخصية بابا نويل لهذه السنة.

ولما حان موعد الرقص، أراد الكل الرقص مع كريستن، لكن مايكل أبى إلا أن ترقص معه وحده.

قالت له ساخرة بعد أن وضع ذراعه حولها وجذبها إليه: «أرى أن أداءك في الرقص تحسن».

لم يكن ذلك صحيحاً. جلّ ما في الأمر هو أنه راح يرقص كما اعتاد أن يفعل في الماضي، فضمها إليه بقوة ليتمكن من الإحساس بخفقات قلبها المتسارعة عبر قماش فستانها الرقيق.

كان مايكل قد نجح في مقاومة الإغراء لفترة طويلة جداً، مع أن رجلاً مثله لا يصبر عادة هذه المدة كلها. كما أن لولو أخبرته أنها لم تعر كريستن أي كتاب ما أثار فضوله.

شدها إليه وعانقها بشغف. ولم يعد واثقاً ما إذا توقفت الموسيقى أو

ما إذا توقفا عن الرقص، لكنها لفت ذراعيها حول عنقه وبادلته العناق بقوة.

قال لها هامساً: «أنت تثيرين الرعب في قلب هذا النجار والصياد المسكين».

- لماذا؟

- تبدين مثل امرأة تنتظر مجيء فارس ذي درع لامع.. أميرة تنتظر مجيء أميرها.

- وهل من خطب في هذا؟

- إنني رجل عادي يا كريستن، ولست ثمرة من ثمرات خيالك.. حرص على أن يكون صريحاً وواضحاً معها.

- أكره هذه البذلة فربطة العنق تكاد تخنقني.

أمسكت بربطة العنق، وفكت عقدتها ورمتها على الأرض.

ابتسم لها وهز رأسه ثم استطرد قائلاً: «أنا من النوع الذي لا يتوانى عن أن يدوس على أرضية نظيفة لامعة بحذاء مغطى بالوحل.. إنني معتاد على الشتم باستمرار وأعاني من فقدان الإحساس. أملك سروالين من الجينز، أحدهما للعمل والآخر للمناسبات الرسمية، فضلاً عن سترة من الجلد لا أنوي الانفصال عنها أبداً. لست راقصاً بارعاً والجميع يعلم أنني معتاد على إيقاع الفتاة التي ترقص معي عند الانحناء».

وتابع يقول وقد فسر صمتها على أنه دعوة ليواصل حديثه: «عندما أراعي مشاعر الآخرين، أكون جاداً في ذلك. أجيد طهي جوانح الدجاج بطريقة رائعة، كما أنني أحب أن أغسل ملابسي بنفسي ولا أتوقع من أحد آخر أن يقوم بهذه المهمة عني».

أومأت برأسها برزانة وسألت: «لمَ تخبرني هذه الأمور كلها؟».

نظر في عينيها الصافيتين، ووجد بأنها اللحظة المناسبة ليصرّح عن مشاعره ويتأكد ما إذا كانت تبادله الشعور.

علا صوت عبر المذياع قائلاً: «حان الوقت».

www.elromancia.com

أجفل مايكل وقد خيل إليه أن أحدهم قرأ أفكاره، لكنه شاهد السيد تامبل يعتلي خشبة المسرح وقد بدا متألقاً في بذلته الزرقاء اللامعة التي تعود حتماً إلى زمن بعيد.

- هلا أتيت يا كريستن من فضلك؟

رمت مايكل بنظرة أسف ثم لامست أنفه مداعبة وقبّلت يده قبل أن تفلتها.

انضمت إلى السيد تامبل على خشبة المسرح، وتظاهرت بالانفعال عندما قدموا لها تمثالاً من مجموعة «ليتل» واغرورقت عيناها بالدموع.

ألقى السيد تامبل خطاباً وقال: «أود أن أشكرك شخصياً يا كريستن لأنك مصدر إلهام لنا جميعاً. ولا يخفى على أحد أنك تحليت بالكثير من الشجاعة لتحولي مأساتك الشخصية إلى أعمال تخدم مصلحة هذه المدينة. أشكرك باسم الجميع لأنك ساهمت في تحويل هذا الحدث الذي كان من الممكن أن يثير في قلوب العديد منا إحساساً بالكره، إلى فرصة للحب».

أحس مايكل بشيء من السكون يخيم عليه وسط التصفيق الحاد. عن أي مأساة يتحدث؟ صحيح أن كريستن أبت أن تفضي إليه بأسرارها، لكنه ظن أنه نوع من التحفظ الطبيعي. لمَ سمحت له بأن يخبرها كل شيء من دون أن تحاول ولو لمرة واحدة أن تخبره أي شيء؟ ما شعر به كان أعمق من الإحباط وأقرب إلى الخيانة.

كاد يفشي لها الليلة سره الأكبر، وشعر فجأة بالارتياح لأنه لم يفعل. كان على وشك أن يأتمنها على أسراره كلها مع أنه ليس متأكداً ما إذا كانت تعتبره جديراً بثقتها.

كانت كريستن تختلس النظر إليه بين الفينة والفينة، وهما في طريق العودة إلى المنزل. بدا وسيماً جداً في بذلته الرسمية، وازداد إثارة بعد أن خلع ربطة العنق وفك أزرار قميصه العلوية.

إلا أنه التزم الصمت في نهاية السهرة. أيعقل أن يكون ذلك العناق قد

أثر فيه إلى هذا الحد؟ علماً أنه ترك أثراً كبيراً فيها.

لم يسبق لأي رجل أن نظر إليها كما فعل مايكل هذا المساء، كما أنّ الأحاسيس التي غمرتها كانت مسكرة. لكن عندما نظرت إلى وجهه تحت ضوء إشارة المرور، تساءلت في سرها عما فاتها إذ بدا متجهماً، مستغرقاً في أفكاره.

سألته: «هل كل شيء على ما يرام؟».

وعندما اكتفى بهز كتفيه بلامبالاة، أدركت أن شيئاً ما قد حصل. أوقف السيارة أمام شقتها، وساعدها على الترجل منها، ثم أخرج هديتها من الصندوق. ولاحظت كريستن أن تجهمه اشتد حدة.

فتحت باب الشقة، ودخلت إلى المنزل فلحق بها ووضع التمثال الصغير على طاولة القهوة.

في الماضي، كانت تعجز عن الابتعاد عن تمثالها الصغير الجديد، لكن اهتمامها به فتر أمام النظرة التي رماها بها عندما التفت نحوها.

- ما الخطب؟

- عن أي مأساة تحدثوا؟

- ما كان عليهم أن يأتوا على ذكر الأمر.

- هذا صحيح، ربما كان عليك أنت أن تفعلي. حملتني على أن أفشي لك أسراري كلها فيما حرصت على ألا تأتميني على أي من أسرار حياتك. ظننت أننا صديقان.

صديقان؟ عادت كريستن بالذاكرة إلى أحداث الأسبوعين الماضيين ووجدت أن عبارة الصداقة لا تكفي لوصف ما يجمع بينهما، ما جعلها تشعر بخيبة الأمل. لقد ضحكا سوياً، وخططا معاً لتحويل الأحلام المستحيلة إلى حقيقة، ورقصا معاً، وتبادلا العناق، وكشف لها عن أسراره... صديقان؟ ومع ذلك، اعترفت في سرها بأنه على حق.

قال لها مدمدماً: «عرفت أسراري كلها، وقدمت لك روحي على طبق من فضة. وأنا لا أعرف عنك أي شيء».

- لطالما قلت لك إنني مملة.

أرادت أن تدافع عن نفسها، لكنها أدركت أن دفاعها لا جدوى منه. ففي حين تخلى مايكل عن مخاوفه كلها، بقيت الشكوك راسخة في داخلها وتحوّلت إلى امرأة عصبية مليئة بالشكوك.

- رفضت حتى أن تقولي لي إنك ترغبين في الحصول على تمثال الفارس ذي الدرع اللامع في عيد الميلاد

هل كان يحثها على المجازفة؟ فليكن له ما يريد.

- خشيت أن تعتبر الأمر سخيفاً.. لقد رأيت النظرة في عينيك وأنت تحمل تمثال «غرام مراهقة». ثم ما فائدة إخبار الجميع أنك ترغب في شيء لا يمكنك الحصول عليه؟ علمت أنّ التمثال نفد بعد ساعات من طرحه في الأسواق.. وبثمن باهظ جداً لا يستطيع أحد من معارفي دفعه. لكن كيف علمت أنني أرغب في الحصول عليه؟

- لاحظت أن الطباعة زالت عملياً عن تلك الصفحة. أقصد تلك الصفحة من الكتيّب الذي تحتفظين به في الدرج العلوي من طاولة المكتب.

- هل كنت تتجسس علي؟

- ربما من الضروري أن يتجسس المرء على الأشخاص الذي لا يثقون به بما يكفي لإطلاعه على شؤونهم الخاصة..

لم تظهر على وجهه أي تعابير تدل على أنه نادم على ما فعله بل حدق فيها ساخطاً. بعدئذ، خلع حذاءه من دون أن يستأذنها فخطر لها أنه سيرتمي على الأريكة التي بدت لها فجأة صغيرة.

لكنه توجه فجأة نحو الخزانة وأخذ منها تمثال «العناق الأول» فصرخت كريستن: «لا تلمسه».

- أتخشين أن أحطم التمثال يا كريستن؟

وساورها في تلك اللحظة إحساس غريب بأنه لا يقصد التمثال الصغير بكلامه بل قلبها.

فأجابت همساً: «أجل.. أخشى أن تحطمه».

قلب مايكل التمثال ليتفحصه وقال متهكماً: «مصنوع في الهند.. ربما على يد فتيان فقراء، مقيدين، يرتدون ملابس رثة».

وصرخت ساخطة: «كفى.. ستحطمه».

- هذا ما يفعله الواقع الأليم.. يقضي على الأوهام الجميلة.. لكن الواقع قد يكون أفضل بكثير في بعض الأحيان.

- كلا، هذا غير صحيح.

وتابعت تقول بصوت مذعور: «منذ أربع سنوات خلت، تعرض ابن أختي صبيحة عيد الميلاد، لحادث سير. كان يومها في السادسة من عمره، وهو اليوم مقعد على كرسي بعجلات. صدمه فتى في الحادية عشرة من عمره، أقدم على سرقة سيارة، ليس لأن بابا نويل لم يقصد منزله فحسب، بل لأن أخته الصغيرة كانت تبكي من شدة الجوع.. لم يكن لديهم حليب في المنزل. أتريد أن تعرف كل شيء عني؟ هذا هو السبب الأساسي الذي دفعني إلى العمل في جمعية بابا نويل السرية.. لأنني لم أشأ أن يقدم أي طفل من أطفال تريمونت على تصرف مماثل.. هذا ما أسعى إليه.. لا أريد أن يستيقظ أي طفل صبيحة الميلاد ولا يجد الهدايا في انتظاره.. هذا ما كنت حريصة على أن أحققه».

كان يدرك أنها لم تخبره الحقيقة كاملة وقد قرأت كريستن هذا في نظراته العميقة الثاقبة.

- أخبريني البقية...

أعاد التمثال الصغير إلى مكانه والتفت إليها فأحست كريستن برغبته الشديدة في أن يمسكها ويهزها لكنه امتنع عن ذلك مكتفياً بشبك ذراعيه على صدره النابض بالرجولة.

- لا ترغبين في هذا فعلاً.. أخبريني ما تبقى...

كانت تعلم هذا منذ اللحظة الأولى فمايكل رجل شديد الخطورة ولا

يكتفي بما يقدمه له الشخص الآخر: فإما أن يحصل على كل شيء أو لا يقبل بأي شيء على الإطلاق.

أخذت نفساً عميقاً وقالت له: «حسناً، ما أريده حقاً هو أن تعود حياتي إلى ما كانت عليه في الماضي.. وهذا أمر مستحيل، مفهوم؟».

- ما الذي تغير؟

لا، قالت له الكثير ولم تعد ترغب في إضافة أي كلمة أخرى.

لكن المشكلة هي أن رجلاً مثله لا يكتفي أبداً بما تريد أن تقدمه له ولن يرتاح باله قبل أن تسلمه أسرارها كلها، حتى وإن كانت تفضل الاحتفاظ ببعض منها لنفسها.

- انتقلت أختي للعيش مع ابنها في أريزونا حيث لا يتساقط الثلج ما يجعل التنقل على الكرسي بعجلات أسهل.

نظر إليها عن كثب. لم تكن واثقة ما إذا مر شخص مثله في حياتها، شخص قادر على قراءة ما يختلج في صدرها.

- لن يتمكنا من العودة هذه السنة لنمضي عيد الميلاد معاً.

كيف سمحت لنفسها بأن تتذمر من حياتها على مسمع من هذا الرجل الذي كانت خسارته كبيرة جداً؟ وشعرت بالخجل من سلوكها، وتابعت تقول: «على أي حال، لن تتوقف الحياة هنا».

- كلا.. ثمة المزيد... ما الذي تغير؟

أبت أن تسمح لنفسها بالبكاء... أبت أن تتذكر تلك الأيام والسنوات التي مرت عليها قبل وقوع الحادث.

- انفصل والداي بعيد تخرجي من المدرسة الثانوية.

غمرها إحساس بالخجل وهي تعود بالذاكرة إلى تلك القصة القديمة، لكن الحقيقة تكمن في تلك الحقبة من حياتها، حتى وإن رفضت الاعتراف بذلك.

- عندما دخلت الجامعة، بدأت بالخروج مع شابٍ هو الأكثر وسامة بين الطلاب.. فأغدق علي الكلام المعسول حتى فقدت القدرة على

التمييز بين الصح والخطأ. وجافاني النوم، وفقدت شهيتي على الأكل، وأصبحت لا أفكر إلا فيه..

- جايمس!

انزعجت كريستن عند إدراكها أنه لم ينسَ اسمه... انزعجت لأن هذا يعني أنه كان يصغي إلى كلامها، ويهتم لأمرها.

- لم تدم هذه العلاقة طويلاً. ستة أسابيع فقط.

إنها فترة كافية كي يتحطم قلب فتاة مثلها، حساسة ورومانسية إلى حد ميؤوس منه.

- كنت متيمة به فطلب مني أن أغش في مسابقة الرياضيات ليتمكن من البقاء في فريق كرة القدم.

قال لها مايكل من دون أن يبدي ذرة تعاطف معها: «كم أنت محظوظة... هذا ما كان يسعى للوصول إليه».

- في هذه الأثناء، بدأت أختي بيكي بمواعدة شاب طيب القلب يدعى كين بايكر فأعادت علاقتهما الأمل إلى قلبي. كان زفافهما أقرب إلى قصة خيالية... وقد أرسلا لي صورهما في رحلة شهر العسل. أذكر كم كانا فرحين عندما حملت أختي، وأذكر البهجة التي غمرتهما عندما اشتريا أول منزل لهما.. فاستعدت عندها ثقتي في الحياة وفي المفاجآت الجميلة التي يمكن أن يحملها إلينا القدر..

انتشلت كريستن نفسها من دفء تلك الذكريات الجميلة ونظرت في عيني مايكل. وأخيراً قالت وهي تبذل ما في وسعها لتكبح دموعها: «انفصلت أختي عن زوجها بعد الحادث الذي تعرض له غرانت... كان على علاقة بامرأة أخرى... في اللحظة التي كنا بأمس الحاجة فيها إلى وجوده، ارتمى بين أحضان امرأة أخرى».

فكر ملياً في كلماتها وبدا واضحاً أنه لن يكتفي بها فقد كان عازماً على تعرية روحها بالكامل...

- كلا.. ما الذي تغيّر فيك؟

حدقت فيه لبعض الوقت ثم أطلقت تنهيدة عميقة وقررت أن تفضي إليه بالحقيقة وبسرها الدفين: «كنت في الماضي أؤمن بالحب.. ولكنني لم أعد أفعل.. هذا ما تغير فيّ».

وأدركت في تلك اللحظة السبب الكامن خلف إصرارها على إخفاء أسرارها عنه. إذا ما تورطت بعلاقة مع رجل مثله فستجد نفسها مرغمة على التخلص من مخاوفها، وإعادة النظر في قناعاتها، والتأقلم من جديد مع عالم آمن، خالٍ من أي مخاطر.

بدا أخيراً راضياً عن الحقيقة التي كشفتها له فقال لها بصوت هادئ: «منذ حوالى الشهر، عهد إلي السيد ثيودور بمهمة مستحيلة. طلب مني العثور على شخص يتعذب أكثر مني كي أمد له يد العون. لم أكن واثقاً يومها من أنني سأعثر على شخص يتألم أكثر مني، لكن يمكنني القول الآن، أن هذا غير صحيح. أتعلمين يا كريستن؟ أتمنى أن استعيد ما كنت أملكه من قبل... أريد عائلة ومنزلاً وكل ما يمكن أن يجعل لحياتي معنى... ولا أقصد بذلك ما تجسده تلك التماثيل الصغيرة السخيفة بل أقصد أن نحمص الخبز في الصباح ونتشاجر حول ما نرغب في مشاهدته.. أن نختار معاً اسم الطفل الذي سننجبه ولون طلاء غرفته.. أقصد أن نعمل معاً، ونتشاجر، ثم نتصالح، ونزرع الأشجار، ونعلق الأرجوحة، ونتبادل العناق بشغف، ونذهب في إجازة معاً. المهم هو أن يدرك الإنسان أنه لن يكون وحده مهما حصل.

«فقدت أفراد عائلتي كلهم، لكنني لم أفقد يوماً إيماني بالحب. إنه الكنز الوحيد الذي ورثته عنهم فقد علمتني الأيام أن الحب هو الشيء الوحيد في هذا العالم الذي يستحق أن يناضل المرء في سبيله».

نظر إليها وهز رأسه ثم أردف: «لكن الحب كان بالنسبة إليك أسوأ ما في الوجود».

قالت له والدموع تغشي بصرها: «لكنك قلت لي إنك مرتبط».

- لكنني توقفت لاحقاً عن الفرار وأدركت أنني بحاجة إلى ما كنت

أنت تهربين منه.

- لمَ تقول لي هذا؟

- لمَ لا تسألين نفسك يا كريستن؟

أرادت أن تسمعه يقول لها إنه يحبها.. لكن كيف تتوقع منه أن يجازف إلى هذا الحد في حين أنها رفضت المجازفة بأي شيء من أجله؟ حتى أسرار قلبها.

- بالمناسبة، أنا لا أصفح عما فعله زوج أختك لكنني أتفهمه.

- حقاً؟

سرّها أن يقول هذا. لماذا؟ فقد كانت على وشك الوقوع في حبه. لكن أن يتفهم موقف زوج أختها؟ وعادت نيران السخط والنقمة تتأجج في داخلها وتزداد حدة..

- عندما يتملك الرجال الإحساس باليأس والبؤس والدمار، لا يتوانون عن القيام بأي شيء على الإطلاق للتخلص من هذا الإحساس... وهذا لا يعني أنهم سيحسنون التصرف دائماً..

- وهذا يفسّر لما أفضّل سميدلي على الرجال الآخرين...

- قد لا يسيئون التصرف إن عثروا على حضن دافئ، وكتف حنون. وإذا لم يشعروا بأنهم ملزمون بأن يكونوا أقوياء ويهتموا بكافة الأمور. أنت تريدين أن تظهري زوج أختك بصورة المجرم. لكن من يدري؟ ربما لم تقف أختك بجانبه..

- أخرج من هنا!

كيف يجرؤ على حشر نفسه في أمور عائلتها؟ كيف يجرؤ على تعرية روحها في حين أنها ليست مستعدة لذلك؟ كان الصراخ في وجهه أسهل من التأمل في ما قاله.

لسوء الحظ أنه لم يشعر بالإهانة بل بدا سعيداً لمغادرته المكان.

قال قبل أن يخرج من المنزل: «أشعر بالأسف نحوك».

عندما فتحت كريستن باب قلبها على مصراعيه أمام مايكل، توقعت

أن يعلن لها حبه لكن رد فعله خيب آمالها فانفجرت بالبكاء وقد شعرت بالصدمة، والغضب، واليأس والألم. فهذا الرجل الذي خسر كل شيء في حياته يشفق على حالها.

لكن، وسط عاصفة المشاعر المتضاربة هذه، سطع فجأة نور الحقيقة. لم يقل مايكل إلا الحقيقة، ولم يخطئ عندما أدرك أنها تتألم أكثر منه لأنها فقدت إيمانها بالحب. لكنها شعرت بقشعريرة قوية تسري في جسمها وهي تنظر إلى البقعة الخالية حيث كان يقف للحظات خلت، قشعريرة هي ثمرة حياة اختارت أن تعيشها من دون حب. حياة آمنة لكن لا طعم لها ولا لون.

كان مايكل يطالبها بأن تفتح قلبها للحياة وأن تتحلى بالشجاعة التي أظهرها لتكون جديرة به.

قالت بصوت عالٍ وقد تملكها الغضب: لست مستعدة لذلك..

وتناهى إلى مسمعها صوت هادئ، عميق صادر من أعماق ذاتها، يقول لها: بلى.. أنت مستعدة لذلك...

٩ - ينبوع الماء العذب

تسعة أيام قبل حلول عيد الميلاد...

ركن مايكل سيارته أمام المبنى الواقع عند طرف الشارع على مقربة من مكتب جمعية بابا نويل. لم يكن وكيل العقارات قد وصل بعد فجلس مايكل ينتظره في السيارة وهو يفكر ملياً في ما جرى بينه وبين كريستن مساء أمس.

كان راضياً جداً عما آل إليه شجارهما الأول مع أنه شعر بشيء من الندم لأنه لم يستفزها بشكل كافٍ.

عندما كان والداه يتشاجران، كان التوتر يخيم على المنزل لكن ما إن تمر بضعة أيام، حتى يُسارع والده إلى طلب الغفران فيشتري لها الورود وتعود الأمور إلى مجاريها. يقول البعض إنه لا ينبغي أن يتشاجر الأهل أمام الأولاد لكن مايكل ليس واثقاً ما إذا كان يوافقهم الرأي. فالتوتر الذي كان يسود علاقة والديه بين الحين والآخر علّمه أن الحب ليس سريع العطب وأن الخلافات بين الزوجين مسألة طبيعية.

نظر إلى ساعته؛ ما زال أمامه متسع من الوقت ليلقي عليها التحية قبل أن يصل وكيل العقارات.

ترجّل من سيارته وقطع الشارع مسرعاً. كانت كريستن جالسة في مكتبها؛ وما إن لمحت طيفه حتى أعادت كتيّبها المفضل إلى الدرج العلوي من مكتبها، وشبكت يديها على الطاولة، ثم نظرت إليه بتكلف وقد بدت عيناها شديدتي الحمرة، وسألته قائلة: «نعم؟»

- هل أنت بخير؟

- طبعاً. إنني على أحسن ما يرام.. ولمَ لا أكون بخير؟

www.elromancia.com

اجتاحته رغبة ملحة في أن يتكئ على طاولة مكتبها ويعانقها بشغف، لكنه فضل أن يتعامل معها بطريقة أقل حدة.

- طرأ علي عمل ضروري هذا الصباح ولم أتمكن من الحضور.

أجابته وهي تحاول أن تتظاهر بأنها متفاجئة: «حقاً؟»

- هل ظننت أنني لم آتِ لأنك طردتني من منزلك؟... من الصعب التخلص مني.

- حقاً؟

ثم أضافت على عجل: «حسناً.. شكراً لأنك أعلمتني... الوداع».

أجابها محاولاً ألا يفقد صبره معها: «هذا ليس وداعاً».

- لست مجروحة القلب.. ولا أحتاج إلى شفقتك.

إنها الكلمات التي تفوّه بها قبل أن يغادر منزلها ليلة البارحة. كان يشعر بالأسف نحوها. أشاحت بنظرها بعيداً عنه، وخيل إليه أنها تحدق بتوق كبير في الدرج حيث وضعت كتيّبها المفضل.

أطلق مايكل تنهيدة طويلة. إنها امرأة صعبة المراس ومعقدة. لمَ اختارها قلبه من بين نساء العالم كلهنّ؟ لأنها امرأة صعبة المراس ومعقدة، ولأن فتنتها لا حدود لها، ولأنها تبذل جهدها لزرع الفرح من حولها مع أنها محطمة الفؤاد.

لم تكن امرأة عادية.. لم تكن امرأة سطحية.. كانت أشبه بينبوع ماء عذب متفجر من قلب الأرض، ومن يتذوق مياهه، يجد صعوبة في تذوق أي شيء آخر.

- اسمعي يا كريستن..

نظرت إليه بعينيها الخاليتين من أي تعبير، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة زائفة. وتراءت له الحقيقة فجأة: هي تحب ارتياد النوادي الأدبية وهو شاب خشن وقاسٍ، عمل طوال حياته على كسب رزقه من عرق جبينه، ولن يتمكن أبداً من إيجاد الكلمات المناسبة لإقناعها.

أراد أن يطلب منها أن تثق به، لكن الثقة هي من الأمور التي فقدتها

يوم تعرض ابن أختها لحادث سير، وانهار عالمها الوردي الجميل. لقد فقدت قدرتها على أن تثق بأحد. واختارت من كلامه الكلمات التي أرادت أن تصدقها وقررت أن تصدق أنه يشفق على حالها.

- من الصعب على المرء أن يشفق على شخص يرغب في خنقه.

واجتاز الغرفة الصغيرة متوجهاً مباشرة نحوها. لم يكن بإمكانها الهرب منه فكرسيها تستند إلى الحائط في ذلك المكان الضيق.

مال نحو مكتبها، ووضع راحتي يديه عليه فسارعت إلى تغطية حنجرتها بيديها وكأنها تريد أن تحميها، ما أثار انزعاجه. هل تصورت أنه ينوي خنقها فعلاً؟

استغل فرصة انشغالها بحماية الجزء الخطأ من جسمها وانقض عليها كالطائر الكاسر... أراد أن يخرجها من تزمتها فوجد جسدها الرقيق المتردد يذعن لعناقه ويستسلم له.

لم يكن مايكل تواقاً إلى عناق مفعم بالشغف والدفء واللهفة البدائية بل إلى عناق بسيط يؤكد له أن المرء قد يلتقي نصفه الآخر على حين غرة. حمل عناقه رسالة واضحة تدعوها إلى أن تثق به وتصدّقه. وجاء الرد على قدر التوقعات.

ابتعد عنها قائلاً: «عليّ أن أنصرف».

فأومأت برأسها من دون أن تتفوه بكلمة.

- بالمناسبة، هل أخبرتك أنني أعدت النظر في الموضوع؟ لم أعد مرتبطاً الآن.

- سأحرص على تعليق الخبر على لوحة الإعلانات.

عادت تراوده تلك الرغبة الشديدة في خنقها. لو كان يملك متسعاً من الوقت للقّنها درساً، إنما يبدو أن تلقين كريستن درساً سيكلفه ارتباطاً مدى العمر.

في هذه اللحظة، تنتظره مهمة أعظم وأكثر إلحاحاً فقد أراد أن يمنح كريستن ما خيل إليها أنه من الصعب جداً الحصول عليه. أراد أن يثبت

لها أن الخير يولد من الشر وأن الحب ينتصر في النهاية.

عاد مايكل أدراجه إلى المبنى المهجور حيث وجد في انتظاره وكيل العقارات الذي تربطه به صداقة ترقى إلى أيام الدراسة.

قال له إيد: «أكره هذه النظرة الخبيثة. كنت أراها في عينيك كلما أردت أن تسحقني في ملعب كرة القدم. لا بد أن الأمر يتعلق بامرأة».

- امرأة صعبة المراس.

- لكن المرأة السهلة لا تجدي نفعاً.

- أنت تتكلم الآن مثل أمي.

دخلا المبنى حيث عبقت رائحة العفن والغبار. كانت الأرضية باردة، والجدران قذرة، والمصابيح مكسورة. وعلى الرغم من ذلك، أذهلت صلابة البناء مايكل.

- سأحوّل هذا المكان إلى مركز غرانت بايكر للمطالعة.

وعلى الرغم من الفوضى التي تعم المكان، تراءت في ذهنه صورة المركز الذي ينوي افتتاحه: الرفوف المرصوفة بالكتب، الجدران الزاهية اللون، الأرضية المغطاة بالخشب الصلب فضلاً عن الآجر المصقول ونظام الإضاءة الحديث.

سأله إيد بنبرة لا تخلو من الارتياب: «ماذا؟»

- سيقصد الأولاد هذا المكان للمطالعة.

- سيكون الأمر ممتعاً شرط ألا يضطروا للعب لعبة شد الحبال مع الفئران.

- لمَ أنا محاط بأشخاص متشائمين؟

ثم تابع يقول متذمراً: «سأصلح المكان وأغيّر الأرضية، واطلي الجدران وأقوم بتركيب نظام حديث للإنارة. وسأبني هنا مدفأة، ومطبخاً صغيراً هناك».

كان بحاجة إلى معجزة في عيد الميلاد لكنها الوسيلة الوحيدة ليعيد إلى كريستن قلبها.

قال لإيد بحزم:

- سنفتتح المكان يوم عيد الميلاد.

وفي لحظة من لحظات الخيال الجامح، رأى مايكل المكان أمام عينيه كما يتخيله تماماً: قاعة كبيرة تعج بالأولاد المسترخين على الوسائد يطالعون الكتب ويلتهمون التفاح.

كان مايكل يعي أن الهدية الحقيقية هي أن يعطي الإنسان بلا حدود ومن دون أن يستثني أحداً. لكن الحياة لا تقدم للمرء إلا هدية واحدة حقيقية تأتي بأشكال مختلفة. لكن مهما كان الغلاف، يبقى الحب الهدية الحقيقية الوحيدة.

غادرت كريستن المكتب في ساعة متأخرة وأصرت لولو على مرافقتها إلى السيارة رافضة الاعتراف بأنها تلتزم بما أوصاها به مايكل.

وعلى الرغم من مرور بضع ساعات، بقي عناقه في ذهنها وكأنه وسمها بطريقة بربرية، بدائية لذيذة. عندما قال لها إنه شديد الانشغال، كانت واثقة من أنه يودّعها، بعد أن وجد عذراً مقنعاً لعدم الحضور إلى المكتب والتواجد بقربها. لكنه عاد وفاجأها بعناق رقيق، يتسم بالمسامحة والترحيب. أتراه عناق الوداع؟

كم يثير سخطها!

شغّلت محرك سيارتها وقررت ألا تسلك الطريق المعتاد إلى منزلها لتمر قرب المبنى الذي تحلم بشرائه. رأت نوراً مشعاً من النوافذ ولفت انتباهها أن لافتة «للبيع» التي عُلقت منذ فترة طويلة اختفت وحلت مكانها لافتة أخرى تقول «مُباع». وتناهت إلى مسمعها أصوات العمّال.

زادت سرعة سيارتها وقد غمرها إحساس بالغثيان.

هذه هي نتيجة التردد. هذه هي نتيجة التريث... لقد تعرضت أحلامها للسرقة على يد شخص صاحب رؤية، وقلب لا يهاب شيئاً. لا يمكنها أن تستمر في انتظار أن تأتي الحياة إليها.

كان مايكل على حق فالحياة ليست مثالية. أليس صحيحاً أنها فقدت

الأمل حتى في العثور على جني وكأن المسألة عسيرة إلى هذا الحد؟...
ما الذي ستفعله؟ هل ستنتظر حتى يعثر لها على جني وتعتمد عليه كلياً؟

يمكنها أن تلعب هي دور الجني بنفسها، يمكنها أن ترتدي بزة خضراء وتوزع الهدايا. هذه الفكرة غمرت قلبها بموجة من السعادة، وتساءلت في سرها لما لم تفكّر في ذلك من قبل؟

إنها رسالة مباشرة لها، مع أن الدرس الذي تعلمته قاسٍ جدا.

عند وصولها إلى المنزل، ستتصل بمايكل وتثبت له أنها تخلصت من مخاوفها كلها. حسناً، الأمر ليس صعباً إلى هذا الحد، فهي تريده أن يترجم لها نواياه، وليس نواياها. لم يعد مرتبطاً؟ لا بأس، هي أيضاً ليست مرتبطة. وعقدت العزم على اغتنام أهم فرصة في حياتها، متجاهلة الدروس التي تعلمتها، وبذل ما في وسعها لتستعيد إيمانها بإمكانية أن تعيش «في ثبات ونبات مدى الحياة».

قررت أن تصغي إلى الصوت الصارخ في داخلها والتي عجزت عن إسكاته، صوت يدعوها إلى الثقة بالآخرين، والتحلي بالشجاعة، والتخلص من تحفظها لتكون جديرة برجل مثل مايكل.

إن كانت ستستعيد إيمانها بالمعجزات، فما المانع في أن تتمنى عودة الأمور إلى مجاريها بين بيكي وكينت؟ كيف يمكنها أن تؤكد أنهما لن يتصالحا أبداً؟ ما معنى بضعة آلاف من الأميال إن كان مقدراً للمعجزة أن تحصل؟

لم تخلع كريستن سترتها عند دخولها شقتها، كما لم تسارع إلى إلقاء نظرة على مجموعة «ليتل» كما اعتادت أن تفعل.

قلّبت صفحات الدليل إلى أن عثرت على رقم هاتفه. ما الذي ستقوله له؟

لكن ذاتها الجديدة بقيت مصممة على أن تكون عفوية في حديثها. ستطلق العنان لنفسها لتقول كل ما يخطر لها.

بقي هاتفه يرن من دون أن يجيب أحد. لم يكن في المنزل. أحست

بالغثيان يزداد حدة. أتراها ستفقده كما فقدت ذلك المبنى؟

- مرحباً... أنت على اتصال بمنزل مايكل. اترك رسالة صوتية وسأتصل بك لاحقاً.

سرى صوته على طول عامودها الفقري وكأنه لمسها وأحست بالارتباك ولم تجد ما تقوله حتى لآلة التسجيل..

فقالت على عجل: «لا تبحث عن جني فقد عثرت على واحد».

وأقفلت الخط وقد انزعجت كثيراً من نفسها... أهذه هي فكرتها عن المجازفة؟

طلبت الرقم من جديد وأحست بنفسها مشلولة الحركة عند سماعها الطنين..

- نسيت أن أترك اسمي فلعلك تبحث عن جني لشخص آخر... أنا كريستن...

وأقفلت الخط بسرعة... كيف تكون المجازفة الحقيقية؟ أن تخبره الحقيقة كاملة وتعلن له عن حبها؟ كانت واثقة من أنه سيكتشف الأمر بنفسه بعد هذه الرسالة المشوشة.

جلست قرب الهاتف تحدق فيه؛ هنا تكمن المجازفة التي لم تكن مستعدة بعد لمواجهتها، وليس في الإعلان عن حبها. فمشاعرها باتت علنية، بطريقة أو بأخرى، ومن دون إذنها.

كانت مشاعرها قوية وكبيرة وحقيقية، مشاعر تكاد تمزق قلبها. وكأنها قفزت من فوق جرف وهي لا تعرف ما ينتظرها في الأسفل أو مدى عمق الهاوية التي وقعت فيها.

أحست بنفسها حية من جديد وكأنها كانت غارقة في سبات عميق واستفاقت منه للتو لتستمتع بكل لحظة جميلة في هذه الحياة. كانت تشعر بنفسها أميرة من أميرات القصص الخيالية وقد قبّلها أميرها قبلة بعثت فيها الروح.

وتساءلت فجأة ما تراه يفعل خارج المنزل في هذه الساعة المتأخرة

من الليل. وخطر لها أنه قد يكون برفقة امرأة أخرى..

وفجأة، هجرت الرياح أشرعة مركبها ما أثار سخطها. لن تتريث بعد اليوم. إن كانت تريده لنفسها، فعليها أن تناضل من أجله بكل ما أوتيت من قوة.

سمعت صوتاً في داخلها يقول لها هامساً: «ثقي به.. فهذه هي الخطوة الأهم».

كانت تثق به فعلاً لكن لعلها لا تثق بنفسها وبقدرتها على التمييز ما بين الرجل السيء والرجل الصالح.

استيقظت صباح اليوم التالي على رنين الهاتف فقفزت من سريرها مسرعة، وصدمت قدمها من شدة لهفتها للإجابة على الهاتف..

- هذه أنا يا كريستن.

بدا صوت أختها مفعماً بالبهجة وهي تضيف: «سنأتي أنا وغرانت لنمضي عيد الميلاد برفقتك».

- حقاً؟؟

- وأحمل لك خبراً سعيداً، سأحتفظ به حتى أراك. لا تقلقي بشأن إقامتنا فأنا أعرف أن منزلك صغير.

لم تشأ أن تقول لها صراحة إنه لا يتسع للكرسي بعجلات.

- لقد حجزنا غرفة في الفندق.

وضعت كريستن سماعة الهاتف وغرقت في الكرسي المجاور. قررت أختها المجيء لتمضية العيد برفقتها. كيف استطاعت أن تتدبر أمورها مع أنها تمر بأزمة مالية؟

ساورتها بعض الشكوك في هذا الشأن؛ قالت لها إنها تحمل لها خبرا سعيداً.... لا بد أنها تعرفت إلى رجل ما فنبرة صوت أختها أثرت فيها أكثر من خبر مجيئها لتمضية عيد الميلاد برفقتها.

على الرغم من غضبها الشديد من زوج أختها، أو زوج أختها السابق، ألم تكن تأمل أن تصطلح الأمور بينهما؟ ألم تكن تتمنى في

أعماق نفسها أن تعود الأمور بينهما إلى سابق عهدها؟

لم يكن من المناسب أبداً أن تطلق كريستن العنان لأحلامها فهي تميل إلى الانغماس في أحلام لا رجاء منها، أحلام قد تترك قلبها محطماً.. وإذا بالثقة التي ملأت قلبها الليلة الماضية وجعلتها مصممة على ألا تتريث بعد اليوم، وتسعى للحصول على ما تريد، تتلاشى شيئاً فشيئاً.

سبعة أيام قبل حلول عيد الميلاد....

- أترغبين في رؤية مشهد جميل؟

وضعت لولو إصبعها على ثغرها وقادت كريستن إلى الغرفة في الجهة الخلفية فإذا بها تجد مايكل نائماً داخل العربة الجليدية... كان قد أخبر كريستن أنه منشغل بمسألة مهمة يريد إنجازها قبل عيد الميلاد. وعلى الرغم من ذلك، كان يجد متسعاً من الوقت ليمر كل ليلة ويتأكد بنفسه من أن الأمور تسير على ما يرام. لم تكن كريستن غبية فقد حرص مايكل على ألا يتركها تتوجه إلى سيارتها بمفردها.

لم يكن الأمر يزعجها على الإطلاق، فقد اعتاد أن يمسك بيدها وينفخ عليها في بعض الأحيان، ليبعث الدفء ليس في يدها فحسب بل في قلبها أيضاً.

رافقها مرتين إلى منزلها ولعبا الورق معاً، لكن عندما نجحت في التغلب عليه، أدركت أن الإرهاق بلغ منه مبلغاً.

غمرتها موجة من الحنان والشوق وهي تتأمله مستغرقاً في النوم. وكانت هذه المرة الأولى التي ترتبك فيها كريستن إلى هذا الحد.

عليها أن تتأكد بنفسها. عليها أن تحصل على إجابات صريحة..

أخذت نفساً عميقاً، ثم تسلّقت المركبة وجلست قربه ومررت يدها على شعره وخده.

استفاق ببطء، وقد بدا مترنحاً ونكداً، فعادت ولامست خده من جديد.

أدناها منه وعانقها بشغف ولهفة وكأنهما يبحثان معاً عن حقيقة أعظم منهما، وأعظم من الألم الذي عانيا منه، وأعظم من القصص الخيالية. وسمحت لنفسها بأن تتخيل شكل حياتها إذا ما قدر لها أن تستفيق كل صباح بقربه.

كيف يمكن أن يكون شكل حياتهما معاً؟ هل يمكن أن يقرآ الصحف معاً في السرير؟ ويشربان القهوة من الفنجان نفسه؟ ويذهبان في إجازات طويلة؟ ويسيران ويداهما متشابكتان؟ ويحرقان الخبز أثناء تحميصه؟ وينجبان الأطفال؟

أحست بنوع من الدفء وهي تفكر في تلك اللحظات اليومية الروتينية، دفء نابع من ثقتها بأنها عثرت على أميرها الذي سيشاركها تفاصيل حياتها اليومية..

قال لها وهو يمد يده ليلامس خدها: «احمرّ خداك خجلاً».

- أعلم هذا.

ولم تتكبد عناء التفكير: «هذه أنا.. أحمر خجلاً».

- هل راودتك أفكار عابثة؟

- كلا.

وضحكت ثم استطردت قائلة: «حسناً، ربما».

نظر إليها بعينيه الناعستين وكأنه يتأمل الشمس وهي تشرق وليس خديها المتوهجين.. و فجأة، ومض شيء في عينيه، شيء عابث ومغرٍ.

- لو كنت فتاة سيئة، لسهُل الأمر أكثر.

- يمكنك أن تعلّمني. تذكّر أنني تعلمت لعبة الورق من دون جهد.

- كلا.. آسف.. عقدت العزم على أن أغير نمط حياتي. كم الساعة الآن؟

قطبت كريستن جبينها؛ لا يفترض به أن يسأل عن الساعة في لحظة مماثلة.

- تجاوزت الساعة منتصف الليل وغادر الجميع إلى منازلهم.

رباه! هل بدا تعليقها وكأنه دعوة صريحة لتمضية المزيد من الأوقات الحميمة معاً؟ لم يكن أمامها خيار آخر وازداد احمرار خديها حدة، غير أنه لم يلاحظ الأمر.

- تجاوزت الساعة منتصف الليل؟

وطار النوم من عينيه فأبعدها عنه ليتمكن من الجلوس، ثم هب واقفاً على قدميه قائلاً: «تباً، علي أن انصرف».

إلى أين يمكن أن يذهب بعد منتصف الليل؟

توقف قليلاً، والتفت إليها وعلى ثغره ابتسامة دافئة مثيرة.

- علي أن أذهب يا كريستن، مع أن الأمر صعب علي..

ومال نحوها وعانقها عناقاً سريعاً وودوداً. ولم تغفل عن إمارات الندم البادية في عينيه، غير أنها لم تكن كافية لحثه على البقاء.

بقيت تراقبه إلى أن توارى عن ناظريها ثم قفزت من المركبة، وأصلحت ثنايا الفستان الجديد الذي ترتديه.

لعل أكثر ما تكرهه في مايكل برويستر هو أنها تحبه إلى درجة حملتها على منح القصص الخيالية فرصة أخيرة.

لبضعة أسابيع خلت، كانت حياتها مختلفة كلياً: غير أنها انقلبت اليوم رأساً على عقب. لبضعة أسابيع خلت، كانت قادرة على التحكم بتفاصيل حياتها من دون أي عناء.

لكن مشكلتها مع مايكل هي أنها لن تتمكن بعد اليوم من الإمساك بزمام الأمور.. هل كانت قادرة على تحمل هذا؟

لم تكن واثقة تماماً لكنها واثقة من أنها لن تتمكن بعد اليوم من الاكتفاء بما كانت قانعة به من قبل. وهذا ما تكرهه في الحب: فهو يدمر كل شيء..

١٠ - وعاد نبض الحياة

ليلة عيد الميلاد. . .

بدا مايكل برويستر مترنحاً من شدة التعب. سيحرص في المرة المقبلة على ألا يتباهى بقدرته على ترميم مبنى قديم، مهمل ومهجور خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة جداً.

حانت ساعة الحسم وشارفت الأعمال على نهايتها لتكشف عن معجزة هي ثمرة روح الجماعة والكرم. عندما ينتهي بابا نويل من تسليم الهدايا على متن مركبته الجليدية، يمكنه العودة إلى هنا ليتأكد من أن المبنى أصبح جاهزاً ليفتح أبوابه أمام سكان الحي. . وكريستن. .

وجد مايكل نفسه مرغماً على التخلي عن غروره أمام تكاتف المتطوعين لجعل مركز المطالعة حقيقة واقعة. فقد انضم إليه، في بادئ الأمر، عدد قليل منهم لكن سرعان ما أخذوا يتوافدون جماعات جماعات. . . شبان وشابات استفاقوا من حلم بابا نويل الوردي، وجاؤوا ليقدموا يد العون من دون مقابل. جاؤوا يعرضون المساعدة مع أنه تحوّل إلى طاغية مستبد، يخرجهم عن طورهم من شدة عصبيته.

وما لبثت الأحكام المسبقة التي أطلقها على هذا الحي أن تلاشت فهؤلاء الفتيان كانوا بحاجة ماسة للعمل وأظهروا توقاً شديداً لتعلم كافة المهارات التي يتمتع بها من دون أن يتهربوا من أي شيء: من صف القرميد إلى الإسمنت، مروراً بأعمال الأدوات الصحية والنجارة وطلاء الجدران. ولم تتوانَ الفتيات أيضاً عن حمل المطارق الثقيلة والمناشير الدائرية إلا أن الأعمال تطلّبت الكثير من الوقت لأن العمال متحمسون إنما تنقصهم الخبرة والمهارة.

لكن حصل ما لم يكن في الحسبان؛ فقد أراد مايكل أن يقدم مركز غرانت بايكر للمطالعة لشخص معيّن. أراد أن يهديه لكريستي، علّ هذه الهدية تجعلها تستعيد ثقتها بالحياة، وتنقل إليها رسالة مفادها أنّ الناس يمكن أن يبعثوا الخير من الشر إذا ما حافظوا على صلابة إيمانهم.

إلا أن هذه الهدية ما لبثت أن تحولت إلى شيء مختلف كلياً، تحوّلت إلى هدية لكل شاب يافع يجتاز عتبة هذا الباب، ويقدم كل ما عنده من دون أن يطلب أي مقابل.

وشعر مايكل بأنه تلقى أعظم هدية على الإطلاق فقد اعترف في قرارة نفسه بأن الحياة لم تدب في جسده يوم انتشلوه من عرض البحر بل يوم دخل مكتب جمعية بابا نويل السرية. فمنذ ذاك اليوم، استعاد أنفاسه ومشاعره ورغبته في الضحك. كما عاد يشعر بالبرد، واضطر إلى شراء سترة شتوية. كانت هذه الأمور كلها تدل على أنه ما زال ينبض بالحياة.

لكن البقاء على قيد الحياة لا يكفي وحده. .

عليه أن يذهب إلى كريستي حاملاً قلبه بين يديه، ويسألها ما إذا كانت مستعدة للمجازفة والوقوع في حبه: فهذه المسألة تفوق من حيث أهميتها مسألة البقاء على قيد الحياة.

قبل بضعة أيام من حلول رأس السنة، بات مايكل قادراً على رؤية ما يخبئه له المستقبل. كان يحلم بمنزل صغير، وامرأة فاتنة رمادية العينين، والكثير من الأطفال. كان يحلم بأطفال يستيقظون باكراً صباح الميلاد ويفتحون الهدايا، فيما أصوات الفرح والحماسة تملأ المنزل. كان يحلم باللحظة التي يحين فيها موعد فتح الهدية الأخيرة والتي تتمتع بأهمية خاصة. .

لهذا السبب بالذات، أولى مهمته الجديدة اهتماماً خاصاً وأظهر، بطريقة أو بأخرى، كفاءته أكثر من أي وقت مضى.

في الماضي، كان رجلاً ساحراً سهل المعشر. كان يحب اللهو، والحفلات، والرحلات مع شقيقه وأصدقائه، ومباريات كرة القدم فضلاً

عن اللقاءات مع أفراد العائلة. وكان قانعاً بكل ما قدمه له العالم، ولا يبحث عن شيء يفوق ما هو قانع به. كان عالمه يدور حوله فقط.

و فجأة، ظهرت كريستي في حياته، كريستي التي تختلف عنه من نواح عدة فعالمها يتمحور حول مساعدة الآخرين، وتغيير العالم وجعله أكثر أماناً، وزرع الحب في الأماكن القاحلة في حين أنها تحاول أن تقنع نفسها بأنها لا تؤمن بالحب..

لقد نسيت، في مكان ما، على درب حياتها، حاجاتها ورغباتها، وأصبحت تخشى أن تسأل عنها.

كان عليها أن تكون أكثر أنانية، وهو أقل أنانية. وجعله العمل الذي يقوم به يشعر بأنه جدير بحب تلك المرأة، وجدير بأن يصبح أباً ويعلّم أولاده أن يكونوا مواطنين في عالم أكبر.

ما افتتاح مركز غرانت بايكر للمطالعة الذي سيقام في الغد سوى البداية. وهو ينوي أن يستعمل النقود التي تلقاها من شركة التأمين وورثها عن والديه وشقيقه، للصالح العام، فقد أدرك، أخيراً، أنها نعمة وليست نقمة، ووجد السبيل المناسب لاستثمارها.

لن يشتري أجهزة تلفزيون أو سيارات فخمة أو ملابس جديدة. كلا، سيستثمرها في مشروع أكثر أهمية: سيشتري المبنى الشاغر في الجهة المقابلة. صحيح أن حالته أسوأ من حال هذا المبنى لكنه سيتمكن من تعليم الشبان كيف يهدمون البناء ويعيدون ترميمه. أثناء هذه العملية، سيتسنى لهؤلاء الفتيان الذين تبددت آمالهم بسبب الفقر، وانعدام الفرص، وسوء التعليم، أن يطوروا أنفسهم من جديد.

كان ينوي أن يحوّل المبنى الجديد إلى مركز آل برويستر للتدريب على المهارات، ليتمكن من تعليم هؤلاء الشبان أصحاب الأحلام الكبيرة، كل ما يرغبون في تعلمه. يمكنه الاستعانة بخبراء لتعليمهم المهارات التي يجهلها. وقد اكتشف خلال الأسبوعين الماضيين أنه مدرس بارع، خاصة مع الأشخاص التواقين إلى هذا الحد إلى التعلّم.

إنما عليه أن يضع أحلام المستقبل جانباً في الوقت الحالي إذ تنتظره مهمة مختلفة، مهمة لا يملك أدنى فكرة عنها.

تجمهر عدد كبير من المتطوعين أمام مكتب جمعية بابا نويل السرية لنقل الهدايا المتبقية إلى المركبة الجليدية بينما جلست لولو في المقعد المخصص لبابا نويل. كانت كريستن قد طلبت منه أن يوافيها مشيرة إلى أنها تحتاج إليه ليتولى مهمة هي الأكثر أهمية في تلك الأمسية.

ولكن أين كريستن؟ وفجأة، فغر فمه.. متى تغير شكل الجنّ إلى هذا الحد؟ ألا يفترض بهم أن يكونوا قصيري القامة وسيئي الطبع؟

خرجت كريستن من مكتب جمعية بابا نويل السرية متنكرة بزي جني يصل إلى نصف فخذيها فبدت ساقاها في الجوارب الخضراء البراقة وكأنها تمتد إلى ما لا نهاية. أما الزي المصنوع من كيس من الخيش فصُبغ باللون الأخضر وثُبت على الخصر بحزام، فكان الأكثر إثارة بين ملابسها كلها بما في ذلك الفستان الأحمر الطويل الرائع.

بدت كريستن موريسون وكأنها ولدت لتكون جني بابا نويل.

ألم تكن كذلك فعلاً؟ أليست الجندي المجهول الذي يحوّل الأحلام إلى حقيقة؟

- لقد وصلت..

واندفعت نحوه مضيفة: «اذهب وبدل ملابسك بسرعة».

- اشتقت إليك.

بدأت الحمرة تزحف إلى خديها فيما قالت: «أبدو مريعة.. لا تنظر إلي بهذه الطريقة».

- أي طريقة؟

وشبك ذراعيه على صدره ومال قليلاً إلى الوراء ليتمكن من تأملها جيداً.

- أنت تعلم ما أقصده.

- كلا، لا أفعل.

حدق في الكيس الذي أعطته إياه والشكوك تملأ عينيه... إنه زي جني بحجم كبير.

- لن أرتدي الجوارب.

- لم أجد جوارب تناسب مقاسك... تحلّ بروح رياضية يا مايكل... أتذكر يوم دخلت المكتب للمرة الأولى؟ قلت إنك تستطيع أن تلعب دور الجني.

- قد يتفوه الشاب بأمور كثيرة ليحاول الفوز بقلب الفتاة.

- رباه! اذهب وبدل ملابسك.

أطلق تنهيدة عميقة ثم نادى لولو قائلاً: «ابدئي بغناء أغاني الميلاد المزعجة».

أراد أن ينتظر حتى الغد ليبوح لها بحبه لكن قدرته على ضبط النفس تلاشت أمام ساقيها المثيرتين...

- ضفدعتي الصغيرة... أريد أن أقول لك شيئاً.. أحبك.

ولم يكد ينطق بتلك الكلمة حتى أصبح لونها بلون البزة التي ترتديها لولو فأمسك بمعصمها، وجذبها نحوه وعانقها فبادلته العناق بشغف.

رفع مايكل رأسه ليلتقط أنفاسه، فوجد المتطوعين يصفقون، ويضربون الأرض بأقدامهم ويطلقون الصيحات استهجاناً...

انحنى أمامها فتراجعت خطوة إلى الوراء. لم يكن مايكل مخطئاً: بدت حمرة وجهها داكنة أكثر من لون زي بابا نويل.

- أحسن التصرف. وصلت أختي وابنها. أقدم لك أختي بيكي... بيكي... هذا مايكل.

ارتدت بيكي زي الجني أيضاً، راحت تتباهى به أكثر من أختها. وعلى الرغم من الشبه الواضح بينهما وارتدائهما الزي نفسه، بدا واضحاً أن بيكي أقل تحفظاً من أختها.

صافحته بيكي بحرارة، وقد حرصت على ألا تخبر أحداً بأنه أرسل لهما تذكرتي السفر وحجز لهما في الفندق. التقت عيونهما فأدركت على

الفور أنه متيّم بأختها. لمَ تصعب أختها الأمور عليه؟

لأنها فتاة صعبة المراس وتحب التحدي، فتاة معقدة يمكن أن يمضي الشاب برفقتها مئة عام أو أكثر من دون أن تتوقف يوماً عن مفاجأته. وهو يراهن على أنه قادر على جعل وجهها يتوهج خجلاً حتى عند بلوغها التسعين من العمر. وسمع صوت صرير كرسي بعجلات.

- هذا ابن أختي غرانت.. هيا.. اذهب وبدل ملابسك بسرعة.

صافح مايكل غرانت ثم خرج مسرعاً ليبدل ملابسه. لم يكن الزي الذي خاطته له سيئاً: فهو عبارة عن كيس أخضر مزود بقبعة من الفرو، ارتداه فوق سرواله الجينز وقميصه القطني. لكن مظهره لم يكن يوحي أبداً بأنه جني.

نظر إلى نفسه في المرآة وابتسم. غريب ما يمكن أن يفعله الرجل من أجل من يحب! ليس حب المرأة فحسب بل حب أعظم وأكبر، حب مجتمعه، وأبناء حيه، حتى من لا يعرفهم أو لم يسبق له أن التقى بهم.

هي إلا لحظات قليلة حتى وجد نفسه على متن المركبة وأدرك، على الفور، أنه ما كان ليفوّت هذه اللحظة مهما كلف الثمن.

في هذه اللحظة، تحوّلت كريستن إلى رسول الحب النقي. إنها المرة الأولى التي يراها في هذه الصورة: كان الفرح ينبعث من عينيها حتى ليخال للناظر إليها أن قدسية هذا العيد اختارتها لتنبعث من خلالها...

كانوا قد تمرنوا مراراً وتكراراً. فبعد أن يتلو بابا نويل الأسماء، يتوجه الذين يلعبون دور الجنيّ إلى الصناديق الضخمة الموزعة بشكل منظم على ظهر المركبة، ويسلمون الرزم للمتطوعين الذين يسلمونها بدورهم إلى الأطفال المنتظرين بحماسة في الشوارع. فالشوارع التي تبدو مهجورة في الأيام العادية، تعج هذه الليلة بالأطفال وأمهاتهم، وأجدادهم، وعماتهم، وعمومتهم، وآبائهم، وأخواتهم وإخوتهم..

رأى مايكل وسط الحشود المتجمهرة، المعجزة نفسها التي رآها على وجه كريستن المشع. رأى الدموع تمتزج بالضحك، وسمع صراخ

الأولاد حين كان بابا نويل يناديهم بأسمائهم، ونظرات التعجب والأمل التي تظهر على تلك الوجوه الصغيرة وهي تتأمل العلب المغلفة وتعانقها بلهفة ريثما يتسنى لها أن تفتحها في صباح اليوم التالي.

سمع مايكل اسم امانذا واتسون فالتفت ليرى فتاة قصيرة القامة مقارنة بسنواتها الست، شعرها مصفف بشكل جميل جداً، وقد اتسعت عيناها الجميلتان عندما سمعت بابا نويل يناديها باسمها.

بحث مايكل عن علبتها الكبيرة، وحملها بسرعة وقفز عن المركبة ليسلمها إليها بنفسه. حدقت الفتاة فيه ودست يدها في يد الرجل الواقف بقربها، ثم استدارت ورفعت نظراتها نحوه وقالت له بصوت رقيق متردد: «من أجلي أنا؟».

لم تستطع حمل العلبة الكبيرة فسارع الشاب الذي جاءت برفقته إلى رفعها عن الأرض ووضعها على كتفه. لعله شقيقها أو عمها، لكن مايكل تمكّن من التعرّف عليه لأنه كان ضمن مجموعة الشبان الذين ساعدوه في ترميم المبنى... أما الفتاة الصغيرة، فراحت ترقص حوله، وتشد على يده الأخرى وهي تصرخ فرحاً..

أقسم مايكل على أن ذكرى هذه اللحظة المميزة ستبقى محفورة في ذهنه إلى الأبد، لحظة امتزجت فيها مشاعر الامتنان والإجلال بالإحساس بالآخر.

عادت المركبة إلى أمام مكتب جمعية بابا نويل السرية، وخيم سكون غريب على المتطوعين، إذ راح كل منهم يتأمل في تلك اللحظات النادرة حيث قدر له المشاركة في حدث أعظم منه.

حملت لولو المذياع للمرة الأخيرة وقالت: «انتظروا... ما زال بابا نويل يحتفظ ببعض الهدايا في كيسه».

كانت تلك اللحظة التي انتظرها مايكل بفارغ الصبر.. إنها اللحظة التي جهز لها لوائح سرية، والمهمة التي أعادت إليه قلبه..

وعلى الرغم من ذلك، لم يستطع البقاء.. فسارع إلى المغادرة قبل أن

تبدأ بتوزيع الهدايا، هدايا بابا نويل السرية لكل المتطوعين..

غادر المكان وقد أحس بأن قلبه امتلأ بالفرح حتى كاد ينفجر..

لم يعد أمامه سوى عشر ساعات لإنجاز الأعمال المتبقية في المركز قبل أن يطلع الصباح. فقد حرص على أن يضع في كافة العلب التي وُزعت هذا المساء، دعوة للحضور في يوم عيد الميلاد والمشاركة في رفع الستارة عن المفاجأة التي يعدها للحي كله.

عليه أن يضع اللمسات الأخيرة على الطلاء، ويخرج الأثاث من الغلاف، ويرتب الكتب التي أُرسلت إليه كهبات على الرفوف.

دس يديه في جيبي سرواله وتابع سيره..

كانت لولو قد تركت المذياع مفتوحاً، فسمعها وهي تصرخ قائلة: «يا رب السماوات! سيتسنى لي أن أقلم أظافري في أريزونا.. وسأقصد المكان وأنا انتعل حذاءً صممه مصمم مشهور».

وقفت كريستن تحدق في المتطوعين وهم يفتحون هداياهم، وقد تفاجأت مثلهم تماماً بضخامة هذه الهدايا التي تنم عن الكرم.

وحظيت أختها بيكي وابنها غرانت بنصيبهما من الهدايا أيضاً.

كان غرانت قد أحرز تقدماً ملحوظاً لجهة تنقله على الكرسي بعجلات. ففي وقت سابق من هذا اليوم، لاحظت بيكي أن كريستن كانت تراقبه، فقالت لها: «عليك أن تتخلي عن الأحلام الكبيرة التي رسمتها له، وتنظري إليه على أنه فتى يتمتع بقلب كبير وعزيمة لا توصف، ولن يرضى بأن يهزم لمجرد فقدانه القدرة على المشي. لعله كان ليكتسب هذا العزم من دون أن يحصل الحادث... وربما لا... عليك أن تثقي أن الأمور تحصل لسبب معين».

مضت أربع سنوات على الحادث، ولم تنفك كريستن تفكّر في ما فقدته متناسية ما تبقى لديها. صحيح أنها تتوق إلى «العيش بثبات ونبات لمدى العمر» لكن أتراها فوتت عليها فرصة العيش بسعادة؟

ماذا عن الثقة؟ تمكن الجميع من تخطي الأمر، وتقبلوا حياتهم

الجديدة على ما هي عليه وليس كما كانوا يحلمون بها.

كانت أختها سعيدة وابنها أيضاً. اختار الجميع العيش بسعادة إلا هي.

استفاقت من أحلام اليقظة على صوت لولو وهي تنادي اسم غرانت، وتناولها كرة السلة لتقدمها له.

ـ إنها موقّعة من إحدى الفرق المعروفة.

وبينما كانت كريستن تسلم ابن أختها هديته، أحست بموجة من الجليد تجتاحها... من اشترى الهدايا لغرانت وأختها؟ من كان على علم بمجيئهما سواها؟ ومن كان على علم باهتمامه الشديد بكرة السلة؟ لم تكن كريستن على علم بالأمر..

وما إن سمعت اسمها عبر المذياع حتى أدركت من يقف وراء هذا كله فراحت تبحث عنه بين الحشد. أحست بحاجة ماسة لرؤية عينيه والتواصل معهما.. والتأكد من أنه حقيقة..

كانت بحاجة ماسة إلى أن تجعله يدرك أنها تثق به بكل جوارحها.

لكنه ترك هداياه واختفى تماماً مثل بابا نويل...

أخذت العلبة من لولو وراحت تحدق فيها. في هذه الليلة، قال لها مايكل برويستر كلمة كانت تتحرق شوقاً لسماعها. قال لها «أحبك»، ولن تجد خير إثبات على صحة ما قاله إلا في محتوى هذه العلبة.

صرخ المتطوعون جميعاً: «افتحيها».

وبدأوا بالغناء والتصفيق. وفتحت كريستن العلبة بيدين مرتجفتين...

مستحيل. كانت تنظر إلى علبة مميزة من علب مجموعة «ليتل»...

كيف تمكن من العثور عليه؟ كيف تمكّن من العثور على تمثال الفارس ذي الدرع اللامع؟ قيل لها إن الكمية نفدت كلها بعد عشر ساعات من طرحها في الأسواق. وما سبب هذا الإحساس بخيبة الأمل الذي غمر قلبها مع أنها تحمل بين يديها القطعة التي لطالما حلمت بامتلاكها؟ ماذا تريد منه؟ إنها هدية جميلة، جميلة جداً، اشتراها لإرضائها مع أن ذوقه

يختلف كلياً عن ذوقها..

ولكن المشكلة هي أنه لم يتقبل يوماً هذا الجانب من شخصيتها. كان يرى فيها أشياء كثيرة، ويتوقع منها أن تعطي أكثر... لم يتقبل يوماً الحاجب الضبابي المريح الذي اختبأت خلفه.

أصيب الجميع بالذهول عند رؤيتهم هديتها، لاسيما وأنهم يدركون مدى تعلقها بهذا التمثال.

بذلت كريستن جهداً كبيراً لتبتسم مع أن خيبة أملها كانت كبيرة جداً ما جعلها على شفير الانفجار بالبكاء.

كيف تسمح لنفسها بإصدار الأحكام، والهدية التي اختارتها له لا تعبر مطلقاً عما تشعر به؟ فقد اختارت أن تدفع له رسم الاشتراك في صف للرقص، واشترت له في اللحظة الأخيرة إحدى تلك الآلات الحديثة لحفظ الأغاني والاستماع إليها. كما اشترت له بعض الحلوى، فضلاً عن سروال داخلي رُسم عليه بابا نويل. واحمرّ خداها خجلاً لمجرد تفكيرها في الأمر.

اقتربت أختها منها، وألقت نظرة على الهدية وهي تبذل جهداً بالغاً لتخفي اشمئزازها...

- هل قلت لك من قبل كم أكره هذه التماثيل؟

سألتها مصعوقة: «تكرهين مجموعة ليتل؟»

- ألم تدركي السبب بعد؟

نظرت كريستن إلى الصورة على العلبة التي تحملها، صورة تجسد شخصين متيمين ببعضهما البعض... ما الذي تمقته أختها فيهما؟

هزت أختها رأسها قائلة: «سميدلي يشبه كينت تماماً».

حدقت كريستن في الصورة على العلبة مصعوقة. كيف فاتها هذا الأمر؟ إنها الحقيقة... سميدلي يشبه كينت كثيراً...

فتحت العلبة بأصابع مرتجفة، وأخرجت التمثال الصغير بحذر من الإطار الوثير الذي صنع خصيصاً من أجله...

كان كينت المتجسد في سميدلي يحدق فيها فنظرت بطرف عينها إلى أختها وهي ترمي كرة السلة لغرانت. كانت كريستن الشخص الوحيد الذي تمسّك بأمل أن تعود المياه إلى مجاريها بين كينت وبيكي... وإذا بهذا الأمل يموت في داخلها. لقد انتهى كل شيء، ولن يتصالحا أبداً.

- التقطيها يا أمي.

رمى غرانت الكرة لكن الضربة كانت قوية فمالت بيكي لتلتقطها وفقدت توازنها. صرخت في محاولة منها لتحذيرها، لكن الأوان كان قد فات عندما رفعت كريستن نظرها فاصطدمت أختها بها بقوة..

ولاحقاً، عندما راحت تفكر في الأمر ملياً، خطر لها أنه كان بإمكانها أن تمسك هاربيت وسميدلي بشكل محكم أكثر لكنها اختارت أن تفلتهما... اختارت أن تنقذ نفسها بدلاً منهما...

وقع التمثال من بين يديها وطار في الهواء، وأفلت من يد السيد تامبل الذي حاول التقاطه، وتحطم على الأرض.

حدقت كريستن في القطع المبعثرة وهي تعي أن أنظار الجميع مسلطة عليها... ولم تغب عنها الدموع المترقرقة في عينيّ غرانت. لكن كريستن أدركت أن كل شيء انتهى..

ضاع الحلم، وتحطم شر تحطيم ولم يعد بالإمكان إصلاحه.

وبينما كانت تقف في ذلك المكان تحدق في قطع الزجاج المحطمة، أدركت أنها أمام خيارين. يمكن أن يكون هذا أسوأ عيد ميلاد في حياتها، رغم انه يبدو واضحاً أن أختها تخطت أزمتها.

أو قد يكون أفضل عيد ميلاد في حياتها...

كان عليها أن تتخذ قراراً بشأن ما تنوي أن تفعله في حياتها.

ضاعت أحلامها كلها، لكنها قررت ألا تدع الحزن يستولي عليها... عليها أن تفرح، لأنها وللمرة الأولى منذ أربع سنوات، يساورها شعور لذيذ بأنها حرة... حرة.. ومشرقة ومستعدة... مستعدة لتقبّل حقيقة رجل يكره التأنق، ويغفو في مؤخرة المركبة الجليدية،

ويختفي في اللحظة التي يفترض أن يسطع نجمه فيها ويستمتع بالمجد والامتنان... رجل ينبهر بها سواء ارتدت ملابس شبيهة بملابس الأميرة أو زي جني. رجل تغمره البهجة عندما يتغيّر لونها ويصبح بلون ثمرة الشمندر في فصل الخريف. رجل تزرع نظراته الخوف في داخلها، وتشعل يداه النيران في قلبها.

وأدركت فجأة حقيقتها المرة: كان الخوف من الوقوع في الحب الذي استولى عليها طوال السنوات الأربع الماضية يترافق مع خوف من ألا يقع أحد في حبها.

تمكن مايكل من إدراك حقيقتها قبل أن يتسنى لها أن تفهم ذاتها ما حثها على استجماع شجاعتها لتتمكن من الوقوع في حب شخص حقيقي..

أحست بالإشراق يملأ قلبها. وراحت تتذكر وجوه كل الأولاد الذين قدمت لهم الهدايا هذه الليلة. وسمحت لنفسها بأن تشعر بفرحهم وبهجتهم، وآمالهم وأحلامهم، كما لم تفعل طوال السنوات الماضية.

انفجرت كريستن بالضحك وقد دقت الساعة منتصف الليل، فاستقبل شارع واشنطن الميلاد بالضحكات الرنانة، المفعمة بالأمل والفرح، والتي طغت على كافة الأصوات الأخرى.

سألت كريستن أختها: «هل يمكنك العودة بمفردك إلى الفندق؟ علي أن ابحث عن مايكل».

١١ - إنه الحب

يوم عيد الميلاد. .الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق بعد منتصف الليل. .

سمع مايكل صرير الباب فرفع عينيه ليرى من القادم. دخلت لولو المكان مسرعة وجذبته إليها بقوة حتى كادت تسحقه بعناقها.

قالت له معاتبة: «كان عليك أن تبقى. عرف الجميع أنك بابا نويل السري، وأرادوا أن يشكروك على ما فعلته من أجلهم».

- يمكنهم أن يشكروني في الغد. . .

وأضاف بلامبالاة: «هل تلقت كريستن هديتها؟»

- وقد تحطمت.

- ماذا؟

- نعم، كان ابن أختها يلعب بكرة السلة وحاولت والدته أن تلتقطها لكنها اصطدمت بها فتحطم التمثال.

وناولته لولو العلبة واستطردت قائلة: «احتفظت بالحطام في العلبة. . .خطر لي أنهم قد يوافقون على إرجاعه».

- ما كان رد فعل كريستن؟

أخذ العلبة منها وهو يدرك تماماً أنه لن يتمكن من استبدالها أبداً. . .

- ضحكت.

على الرغم من أنه دفع مبلغاً كبيراً ثمناً لذلك التمثال السخيف، إلا أنّ مايكل تنفّس الصعداء في سره. لا شك أنها لن تكف عن مفاجأته بتصرفاتها حتى عند بلوغ التسعين من العمر. .

وتسلل إلى المكان فتى يافع يعشق الأعمال الجدارية، فناداه مايكل

قائلاً: «اسمع يا فتى. . هل يمكنك أن تقوم برسم الصورة التي على العلبة على الحائط؟»

أثارت هذه المهمة الحماسة في قلب الفتى فسارع إلى الرسم. . .ولم تكد تمر لحظات، حتى وصل شاب آخر يدعى مالكولم، فسأل مايكل: «هل يمكنني المساعدة؟»

- إنها ليلة عيد الميلاد. عد إلى منزلك وامضِ بعض الوقت مع أفراد عائلتك.

- إنه يوم الميلاد. تجاوزت الساعة منتصف الليل منذ أكثر من ربع ساعة.

ثم ابتسم ابتسامة عريضة وأضاف: «أنت الآن عائلتي».

وفُتح الباب من جديد فصرخ مايكل بنبرة قاسية: «بارني، طلبت منك والدتك المشاركة في قداس منتصف الليل».

لكن بارني هز رأسه بعناد وقال: «علي أن أنهي العمل الذي بدأته».

طبعت لولو قبلة على خدّه قائلة: «لطالما رغبت في تقبيل بابا نويل. والآن، أين تضع مساحيق التنظيف لأنظف النوافذ».

واستمر أفراد طاقمه أو بالأحرى أفراد عائلته بالتوافد ليكونوا معه في هذه الليلة المميزة. فقال لهم: «أظن أن لديكم أموراً أخرى تقومون بها صباح عيد الميلاد، بدلاً من العمل هنا».

لكن أحداً منهم لم يحرك ساكناً.

- حسناً، لكن أرجو ألا تكون هذه بداية تقليد جديد في عيد الميلاد. فلتتكاتف يا أصحاب ولنبدأ الطلاء.

عيد الميلاد. .الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. . .

تناهى قرع الأجراس إلى مسمع كريستن من بعيد، معلناً انتهاء قداس منتصف الليل. .أين مايكل؟ كيف سمحت له بالاختفاء بهذه الطريقة؟

كانت تدرك أنه يبذل قصارى جهده لإرضائها إذ أرسل في طلب عائلتها، وحرص على أن يشتري لها الهدية الأحب إلى قلبها، مع أن

www.elromancia.com

خيبة أملها كانت عظيمة لأنها لم تثر فيها المشاعر التي توقعتها. ربما لأنها تحبه. أراد مايكل أن يشعرها بالأمان وبأنها محبوبة. وماذا قدمت له في المقابل؟ كيف شكرته على كل ما فعله من أجلها؟ تركته أسير وحدته.

إنه أول عيد ميلاد يمر عليه بعد وفاة عائلته ولم تسنح لها الفرصة في خضم انهماكها بمشاكلها كي تفكر في المشاعر التي تتخبط في داخله.

وخطر لها في تلك اللحظة أن الأعمال التي تقوم بها جعلت الآخرين ينظرون إليها على أنها فتاة لا تعرف الأنانية. إنما تبين لها أنها الأكثر أنانية: إذ شكّلت مشاعرها محور الأمور كلها، كما حرصت على اختيار هدايا الأولاد بنفسها لتحافظ على إحساسها بالسيطرة.

كانت بحاجة إلى نوع من الهدنة، وقد شعرت بنفسها مستعدة للانتقال إلى مرحلة جديدة... هذا هو الحب الذي يتطلب منها أن تبذل جهداً أكبر من ذي قبل.

لم تكن تعرف عنوان منزل مايكل لكنها تعرف عنوان السيد ثيودور، لأن اجتماعات النادي الأدبي تقام في منازل أعضائه بالتعاقب. وقد سمعت مرة مايكل يقول إنه جاره.

توجهت إلى المكان بسرعة. ولاحظت كريستن أن معظم المنازل في الشارع مضاءة باستثناء منزل واحد، مظلم، يلفه الحزن فأدركت في الحال أنه منزل مايكل مع أنها لم ترَ أي لافتة على البوابة.

كان مايكل شديد الحرص على تحقيق أحلام الجميع، بمن فيهم كريستن، ومع ذلك تركته يعود إلى منزله الكئيب الموحش..

أخذت نفساً عميقاً، وحاولت أن تشد زيّ الجني الذي ترتديه نحو الأسفل، ثم توجهت إلى الباب وقرعت الجرس. لم يجبها أحد. قرعت الجرس مرة أخرى، لكن من دون جدوى... وقفت على رؤوس أصابعها وحاولت أن تختلس النظر من النافذة التي تعلو الباب...

- مايكل

- كريستن؟

ارتعدت فرائصها هلعاً..

- سيد ثيودور.. ما الذي تفعله هنا؟؟ تجاوزت الساعة منتصف الليل.

وقف الرجل في الممشى خلفها

- كنت على وشك أن أطرح عليك السؤال نفسه.. مايكل ليس هنا.. لم يرجع إلى المنزل بعد.. فهو معتاد على ركن سيارته أمام الباب.

غمرها إحساس فظيع بخيبة الأمل، لكن وعلى الرغم من ذلك، اكتشفت تحوّلاً جديداً في داخلها. فلو قصدت منذ شهرين منزل الرجل الذي تحب في منتصف الليل ولم تجده فيه، لتذكّرت على الفور ما فعله كينت وقدّرت الأسوأ. لكن مايكل مال نحوها الليلة وهمس في أذنها أنه يحبها.. لم يكن يمازحها مع أنه ناداها ضفدعتي الصغيرة. كما وافق على ارتداء زيّ الجني من أجل إرضائها... إنه الحب بالتأكيد.

قررت في تلك الليلة أن تهدي نفسها أعظم هدية على الإطلاق.. ستستعيد ثقتها بالآخرين من جديد.

سألته: «هل تعرف أين يمكنني العثور على مايكل؟ أنا قلقة عليه فهذا أول عيد ميلاد يمضيه من دون عائلته ولا أريد أن أتركه وحده».

- أظن أنه سيجد صعوبة كبيرة في العودة إلى منزله هذا المساء...

وصمت لحظة ثم أضاف: «اعتادوا إقامة حفلة كبرى عشية عيد الميلاد.. كانت والدته امرأة مميزة وتعشق عيد الميلاد».

- وخير دليل على ذلك هو الرجل العظيم الذي ربته.

نظر إليها السيد ثيودور والرضا بادٍ في عينيه.

- لو كانت إيلين على قيد الحياة، لبدا هذا المنزل مختلفاً. فقد اعتادت منافستي بشكل ودي على زينة الميلاد.. لا أظن أن مايكل زيّن شجرة الميلاد.

ابتعدت كريستن عن الباب ووضعت يدها على النافذة لتتمكن من

إمعان النظر. كان السيد ثيودور محقاً: لا أثر لشجرة الميلاد أو لأي زينة أخرى. في الواقع، بدت لها تلك الغرفة الأكثر وحشة على الإطلاق إذ اقتصر أثاثها على كرسي بذراعين وجهاز تلفزيون ضخم..

قالت له بنبرة حزينة:

- أتساءل ما إذا كان بالإمكان أن أعثر على شجرة العيد في مثل هذه الساعة.

- تجدين العديد منها في آخر الشارع. لا أظنهم سيبيعون أي منها بعد اليوم. أحتفظ بمفتاح منزله في مكان ما للحالات الطارئة.

كان ميدان أشجار الميلاد مهجوراً، فراحت كريستن تتجول فيه والإحساس بالذنب لا يفارقها لحظة واحدة. اختارت أفضل شجرة بين المجموعة المتبقية، وشعرت أنهم سيلقون القبض عليها عاجلاً أم آجلاً. قهقهت ضاحكة حين تخيّلت صورة رجال الشرطة وهم يلقون القبض عليها في الجرم المشهود في زي جني.

منذ شهر ونصف، كان هذا الأمر بعيد الاحتمال في حياتها المنظمة خير تنظيم. وهذا ما تعشقه في الحب: فهو قادر على أن يقلب حياة المرء المنظمة بدقة رأساً على عقب.

وخطر لها أنّ ما من مفر من سرقة الشجرة، فلمَ لا تختار الأفضل بينها؟

عندما وصلت إلى منزل مايكل، وجدت المصابيح مضاءة، والسيد ثيودور يتصرف بحرية في المنزل. بدا مطبخ مايكل وكأن أحداً لم يستعمله منذ فترة طويلة جداً. تأمّلت كريستن الجدران حيث عُلقت صور تروي تاريخ عائلة مايكل كله فأحست بموجة من الحب تجتاحها.

- أحضرت بعض الأغراض من منزلي إذ لم أجد حتى زجاجة حليب في الثلاجة.

اختلست كريستن النظر إلى الثلاجة فوجدتها حزينة تماماً مثل المنزل. أمضى أياماً طويلة يبذل ما في وسعه لجعل الميلاد مميزاً

للجميع، ولم يفكر حتى في شراء علبة من الزبدة ليضعها في ثلاجته.

- أحضرت بعض الأشياء الأخرى أيضاً..

وقصد بذلك مجموعة كبيرة من علب الزينة، والشرائط الملونة والشموع. استمرا في العمل جنباً إلى جنب إلى أن لفت روح الميلاد المكان.

نظر السيد ثيودور من حوله وتنهد قائلاً: «أظن أنه سيتخطى محنته يا كريستن. كنت أشك في الأمر في بعض الأحيان».

- لمَ أنا؟ لمَ أرسلته إلي؟ كيف علمت أنني أتعذب أكثر منه؟

أجابها السيد ثيودور وقد بدا عليه الذهول: «لم أكن أعلم هذا يا عزيزتي.. أرسلته لمساعدة الأطفال الذين يحتاجون إلى هدايا. وبمناسبة الحديث عن الهدايا، لا أرى شيئاً تحت الشجرة.. سأعود على الفور».

خرجت إلى سيارتها وأحضرت الهدايا التي اشترتها لمايكل ووضعتها تحت الشجرة فيما عاد السيد ثيودور بعد قليل، حاملاً معه صورة موضوعة في إطار.

قال لها وهو يمد يده ليعطيها صورة العائلة السعيدة مجتمعة أمام هذا المنزل:

- التقطت لهم هذه الصورة قبل مغادرتهم إلى ألاسكا للمرة الأخيرة.

لفت انتباهها شقيقه الأقصر منه قامة، مع أنه أكبر سناً، والذي تعلو وجهه إمارات عابثة مرحة. وظهرت الإمارات نفسها على وجه والده بينما بدت والدته قانعة بما لديها.

كانت والدة كريستن تردد دائماً أن وجوه الناس تدل على ما يستحقونه.. وعندما نظرت كريستن إلى وجه والدة مايكل، رأت وجهاً ينبض بالقوة والرقة، وجهاً مشرقاً بالسعادة التي تدل على أنها كانت تنعم بحب رجال حياتها وليس بحب فرسان بدروع لامعة.

إلا أنّ لغة أجسادهم التي تعكس شدة حرصهم على حمايتها ومدى

حبهم لها، أكدت لها أن هؤلاء الرجال كانوا فرسانها بكل ما للكلمة من معنى.

مررت أصابعها برقة على وجه المرأة التي لن تتمكن من مقابلتها إلا من خلال ابنها ثم توجهت نحو شجرة الميلاد ووضعت الصورة تحتها.

بعد الانتهاء من تزيين المكان، تمنى لها السيد ثيودور عيد ميلاد سعيد وغادر المنزل.

ارتمت في كرسي مايكل الكبير المريح للغاية على الرغم من شكله المريع، واستسلمت للنوم قبل أن تعي ذلك..

استيقظت على رنين هاتفها الخلوي..

- كريستن؟

بدا صوت أختها مضطرباً.

- أين أنت؟

استفاقت كريستن من سباتها العميق.. كان نور الصباح قد أضفى على شجرة الميلاد رونقاً ذهبياً. ما زالت في منزل مايكل.. أتراه لم يرجع بعد؟ هل هو بخير؟

- هل تعرفين مكان مايكل؟

ترددت أختها قليلاً ثم قالت لها برقة: «أختي العزيزة.. إن تعلقت بحب هذا الرجل أكثر، فسنضطر لأن نلغي عيد الميلاد، لأنه لن يتمكن من منافسة العرض الذي تقدماه لنا».

عيد الميلاد! كان يفترض بها أن تتوجه في الصباح إلى الفندق لتفتح الهدايا. سألت أختها من جديد: «هل تعرفين مكان مايكل؟»

عليها أن تبحث عنه وتفضي إليه بمكنونات قلبها. أرادت أن تقول له إن الحب يعني أن يتوق المرء إلى مشاطرة عالمه مع الآخر، بعيداً عن أي أسرار.

قالت لها أختها: «أعرف مكان مايكل. صدرت إلي الأوامر بأن أصطحبك إليه. هل يمكنك موافاتي إلى هنا؟»

لم تكن كريستن قد خلعت زي الجني بعد لكنها لم تأبه للأمر.

خرجت من الباب مسرعة وتمكّنت من الوصول إلى الفندق في أقل من خمس دقائق.

قالت لها أختها بنبرة الأمر: «استديري. ! هيا، أسرعي قليلاً. سأقع في ورطة كبيرة إن تأخّرنا».

- لم أعد أريد أي مفاجآت منه. جاء الآن دوري.

- اصمتي واستمتعي بالأمر.

- معصوبة العينين؟ هل تمزحين؟

بدا واضحاً أنها لم تكن تفعل...

أعادتها أختها إلى السيارة، وتولت القيادة عنها.

توقّفت السيارة، وتناهى إلى مسمع كريستن ضجيج حشد من الناس، وأحست بهواء الصباح البارد يلفح خديها..

ولم تكد تمضي ثوانٍ قليلة حتى ضمتها ذراعاه وعبقت رائحته في أنفها..

- الجني المفضل لدى بابا نويل.

- ما الذي تخطط له؟

نزع العصابة عن عينيها، وإذا بعينيه تغمرانها بحنانهما..

لم تكن عينا رجل هجر منزله ليلة عيد الميلاد بعد أن تغلب عليه الإحساس بالوحدة واليأس..

- لدي هدية لك.

- قدمت لي الكثير.

وضع إصبعه على شفتيها، ولمس كتفها ثم ساعدها على أن تستدير فوجدت نفسها عند منعطف شارع واشنطن الذي بدا مزدحماً بالناس، تماماً كما كان ليلة البارحة... ولفت انتباهها الأولاد الذين راحوا يتباهون بمعاطفهم الجديدة، وبالهدايا التي تلقوها.

وجدت كريستن نفسها تحدق في المبنى الذي بيع من دون علمها،

وقبل أن يتسنى لها أن تحقق حلمها.. وتفاجأت لدى رؤية المبنى وقد رُمم بالكامل وعلقت لافتة فوقه مغطاة بقطعة من القماش.

- غرانت... اسحب الحبل.

سحب غرانت الحبل فطارت قطعة القماش وحطت على الأرض فانفجر الأولاد بالضحك وابتعدوا من المكان...

قرأت كريستن ما كُتب على اللافتة بصوت مسموع: «مركز غرانت بايكر للمطالعة».

كان غرانت يتنقّل في الشارع في كرسيه صارخاً بصوت مفعم بالحماسة: «مبنى يحمل اسمي».

أحست بوهن في ساقيها وكادت تقع أرضاً لكن مايكل سارع إلى الإمساك بها.

- أتريدين رؤيته من الداخل؟

اكتفت بأن تومئ برأسها فعبرا الشارع معاً واجتازا الأبواب التي فُتحت لهما.

بدا المكان من الداخل أشبه بجنة على الأرض: رفوف من الكتب، أنوار خافتة، أرضية خشبية، سجاد سميك، ووسائد غنية بالألوان. تدافع الأولاد خلفها وكأنهم نهر متدفق.. وما لبث أن امتلأ المكان بأعداد كبيرة منهم، جاؤوا يبحثون عن كتب، ومكان يرتاحون فيه.

ولم تكد ترفع عينيها لتنظر إلى الجدران حتى صرخت لاهثة.. كانت الجدران الأجمل على الإطلاق: هنا فرس البحر يرقص مرتدياً تنورة زهرية، وهناك فأر مغمى عليه قرب قمر مصنوع من الجبنة. أما قصر الأميرة النائمة فمحاط بخندق مليء بالماء.

وفجأة، ظهر سميدلي في الوسط، على ظهر حصان أبيض، وقد مال نحو الأمام ليقبّل يد هاريت... لكن سميدلي لم يكن يشبه سميدلي الذي عرفته بل يشبه مايكل. وهاريت تشبهها هي.

- لا تتوقعي مني أن ألعب دور الفارس إلا في هذه الصورة.

افتر ثغرها عن ابتسامة واهية وقد تجلت لها حقيقة مختلفة، فالفارس الحقيقي يحمل قوته واستقامته في داخله، ولا ينزع درعه إلا لشخص واحد مميز كاشفاً له بالتالي عن قلبه..

ودّعت أختها وغرانت والتفتت نحو مايكل قائلة: «جاء الآن دورك.. حان وقت العودة إلى المنزل».

صعق مايكل لدى رؤيته منزله فلزم الصمت.

- هل أزعجك ما فعلته يا مايكل؟

- أبداً.

وجذبها نحوه وعانقها إلا أنها أرغمته على الجلوس وفتح هداياه. ضحك كثيراً عند رؤيته الاشتراك في صف الرقص وأكلا معاً الحلوى على الفطور. لكن عندما فتح علبة السروال الداخلي الذي اشترته له، لم يتفوه بأي كلمة واكتفى بالتحديق فيها حتى احمر وجهها وتوهّج بقدر النجمة المعلقة في أعلى الشجرة.

ضحك بعدها وقال: «هذا ما أردته في عيد الميلاد... توهّج كريستي».

شغّل الموسيقى وسألها: «هل ترغبين في الرقص؟»

- أجل.

ورقصا متلاصقين وهما يستمعان إلى الموسيقى.

وأخيراً، قدّمت له الصورة التي بقيت وحيدة تحت الشجرة، قائلة: «هذه هدية السيد ثيودور».

تأملها مايكل بإمعان ومرر أصابعه فوق الوجوه التي لن يتمكن من رؤيتها ثانية.

وقفت كريستن تتأمل يديه: منذ أن وقعت عيناها عليهما للمرة الأولى، قالتا لها أشياء كثيرة عنه. إنهما يدا رجل قوي صاحب مهارات عالية، يدان توقظان في المرأة إحساساً بالوحدة، وتجعلانها تتوق إلى حقيقة مختلفة.

وضع الصورة جانباً، ليس تحت الشجرة بل على رف المدفأة، فقالت له برقة: «أهلاً بك في منزلك».

- يحتاج إلى الكثير ليصبح منزلاً.

- حقاً؟

ونظرت من حولها لترى ما الذي نسيت أن تضيفه إلى الزينة لكنه أمسك بذقنها ورفع رأسها لتلتقي نظراتهما..

- يمكنك أن تمنحيني الهدية التي أتوق إليها أكثر من أي شيء آخر في العالم.

فهمت كريستن مغزى كلامه على الفور.

- أريد أن أتزوجك يا كريستن. أريد أن أحبك وأمنحك النعمة التي ورثتها عن عائلتي.

لم تجد الكلمات المناسبة للرد عليه فاكتفت بالإيماء برأسها موافقة. ضمّها في الحال إلى صدره وعانقها ثم أخذ يدور بها في الغرفة إلى أن وقعت قبعة الجني على الأرض.

قال لها بنبرة مفعمة بالرضا: «هذا ما تمنيته بكل جوارحي، ليس فقط في عيد الميلاد... أريد أن أجعلك تحمرين خجلاً إلى الأبد. أهلاً بك في منزلك يا كريستي».